جمال الفرا

سفير سورية ووزير الخارجية سابقاً

لقين من حياتهنّ عجباً



…ن لعشر حِسانٍ عرفتهُنّ في عشرَة بُلدان

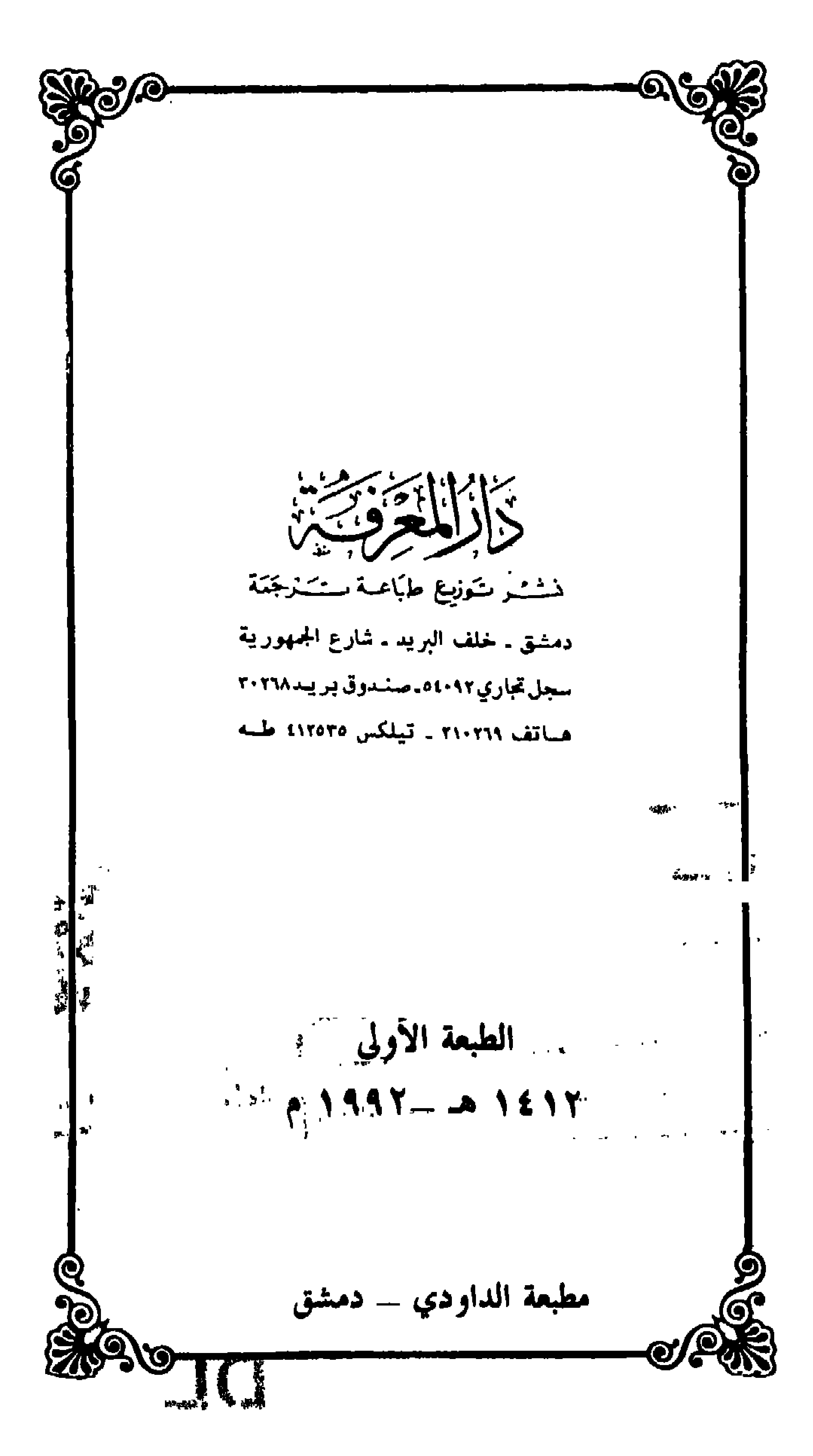
أسفار وسفارات

جمال الفرّا
سفير سوريّة ووزير الخارجيّة سابقًا

لقين من حياتهنّ عجبًا

عشر قصص لعشر حِسانٍ عرفتهنّ في عشرة بُلدان

أسفار وسفارات



دار المعرفة
نشر توزيع طباعة ترجمة
دمشق - خلف البريد - شارع الجمهورية
سجل تجاري ٥٤٠٩٢ - صندوق بريد ٣٠٢٦٨
هاتف ٢١٠٢٦٩ - تيلكس ٤١٢٥٣٥ طه

الطبعة الأولى
١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م

مطبعة الداودي - دمشق

الفهرس

للمؤلف

الراديو والتلفزة .
دنيا المغتربين .
صدى السنين الحاكي .
لؤلؤة مايوركا .
ثلاث سنين في بلد لينين .
أربع سنين في البرازيل وجاراتها العشرين .
الله يعمرك يا حي الوردات .
حيث تشرق الشمس في منتصف الليل .

أهدي هذا الكتاب إلى أخي المهندس خليل الفرا

المقدمة

أود التقديم للقصص الواردة في هذا الكتاب والتعريف بصاحبها .

أما الراوي فهو زميلي في السلك الدبلوماسي يوماً وصديقي دوماً طاهر بن سيدي حنون من أبناء المغرب ، وقد أوردت في مطلع كل قصة طرفاً من طباعه من قبيل الذكرى ومزيداً من التعريف .

أما القصص فقد حرصت ما وسعني على أن تأتي كما رواها لي في جلسات لنا في عواصم الغرب ، وهي من واقع حياته . وفي واقع الحياة من عبث الأقدار في مصائر الناس ما يفوق الخيال .

وآمل أن يكون للقارىء الكريم في تلاوة هذه القصص جولة مريحة في عشرة بلدان وإطلالة ممتعة على سيرة عشر حسان .

جمال الفرا

سفير سورية ووزير الخارجية سابقاً

في مطار هلسنكي

صديق العمر طاهر بن سيدي حنون يروي لي حكاياه فأحسب أنه يتوجه إليّ بالحديث حتى إذا ما انطلق بدا لي كأنه لا يدري بحضوري وإنما يستعيد ذكرياته يعيشها لنفسه من جديد . حدثني يوماً قال :

حكايتنا تدور في فنلندا ، بلد الألف بحيرة وبحيرة كما يسمونها . والظريف أن في واقع هذه الحكاية شيئاً من أساطير ألف ليلة وليلة ، فيما حدث لفتاة من أسرة فقيرة من قرية نائية في شمال فنلندا لو أنها استجابت لنداء دعاها من الشرق لجلست على عرش الأباطرة من آل قاجار في بلاد فارس ولكنها عزفت عن العرش ... وملكت قلبي . وعرش الحب أسمى العروش .

* * * * *

كانت العاصمة هلسنكي الملفحة بالثلوج تحتفل بعيد فنلندا القومي إذ يقع هذا العيد في بحر الشتاء وكأنه في موعده هذا ، على مثال الخلق الفنلندي ، يتحدى الصقيع والجليد . كنت أشارك في هذا العيد في كل عام قادماً من استوكهولم . ولم تكن مشاركتي من قبيل أداء الواجب والمراسم فحسب بل أحببت هذا البلد وأعجبت بشعبه : بلد منعزل في الشمال تناساه الغرب يعيش في ظل جار جبار من الشرق وقست عليه الطبيعة فتسلح شعبه بالعزم المتين في كفاح دائم .

* * * * *

لا مباهج ولا مباذل في الاحتفال بهذا العيد القومي وإنما يقتصر الأمر على الاستماع إلى سمفونية « فنلنديا » من وضع الموسيقار الفنلندي الكبير « جان سيبيليوس » في عصر ذلك اليوم يجتمع رجالات الدولة وكبار القوم وضيوفهم في المدرج الكبير من جامعة هلسنكي حيث تعزف الفرقة الموسيقية القومية فتسكن الحياة في فنلندا من أدناها إلى أقصاها وتستمع أمة بأسرها ، عن طريق الإذاعة والتلفزيون ، إلى السمفونية في جلال وخشوع .

ذلك أن لهذه السمفونية شأنها في التاريخ الحديث فقد عاصر الموسيقار سيبليوس الحرب الفنلندية ــ الروسية من شتاء العام ١٩٤٠ حين اخترق الجيش الأحمر حدود فنلندا فصمد

له الفنلنديون وأبدوا من البسالة ما اعترف به الأعداء . وكان سيبليوس قد تجاوز السبعين من عمره فأراد أن يكون آخر آثاره تسجيلاً صادقاً لمحنة بلده وبطولة أبنائه في إطار موسيقي يوحي بعظمة الغابات ونقاوة الثلوج . وهذه الغابات والثلوج كانت الحليف الوحيد للفنلنديين ، فطلع على العالم بسمفونيته الرائعة يعتبرونها شعاراً قومياً .

* * * * *

أخذت مقعدي في مدرج الجامعة وتطلعت إلى من حولي فرأيت سيدة في شرفة مجاورة . تلاقت عينانا ، وعيناها آيتان في الحسن دباحتان ، وتبادلنا النظرات . ليس في ملكوت الله أعجب من نظرة العين . نظرة سريعة في لمح البصر تترك آثارها تبقى على المدى الطويل . نظرة وادعة تفجر البراكين في الأعماق .

توالى عزف السمفونية في حوالي ساعة وكلانا ، في تجاذب غريب وفي توافق توقيت عجيب ، نتبادل النظرات معاً في الحين الواحد . نظرات عابرة فيها رعشة لمس تيار الكبرياء .

اختتم الحفل وتوجه الجمع إلى المشلح فرأيت سفير إيران السيد مسعود الكاظمي يرافق تلك السيدة ثم يساعدها على ارتداء معطفها من الفرو . تبادلت والسفير التحية فعرفني بالسيدة واسمها مانلي باركيلا ، وعادت الرعشة أقوى حين تصافحت يدانا وتسمرت نظراتنا يحدق كل بالآخر لا نطيق فراقاً .

* * * * *

السيد الكاظمي من خيرة أصدقائي في استوكهولم وهو مطبوع على الدبلوماسية في الخلق قبل الاحتراف ومن القلائل الذين أبقت عليهم في مناصبهم ثورة الزعيم مصدق على حكم الشاه وظلوا من بعدها يتمتعون بثقة الشاه بعد عودته . وعجبت فما شأن هذه السيدة معه وهو رب أسرة وما عرفت له مثل هذه الصلات .

التقينا في الغداة في الفندق وكنا نزيلين فيه فبادرني الحديث قبل أن أنبث ببنت شفة ، والواضح أنه لحظ موقفي من السيدة في الأمس ، وقال ضاحكاً : كيف قضيت ليلتك ؟ ... وكيف كانت أحلامك ؟ ... أرجح أنك تواق إلى معرفة أخبارها ..

وجلسنا يروي لي حكايتها :

* * * * *

نشأت « مانلي باركيلا » في قرية « توركاماليينا » في شمال فنلندا وكان أبوها مزارعاً فقيراً وأباً لخمس بنات ، فكان أهل القرية يتندرون قائلين : ليت للعم باركيلا من البقرات قدر ما عنده من البنات ! وعمد مجلس إدارة المقاطعة إلى مساعدة الرجل في أعبائه العائلية فمنح كبرى بناته وهي مانلي هذه ، منحة دراسية في معهد مهني في هلسنكي ، ولم يسلم أبو البنات من دعابة القوم إذ أخذوا يتهامسون : شبان القرية هجروها إلى العاصمة وليس لبنات باركيلا نصيب في أزواج هنا في القرية وها أن كبراهن تلحق بالشبان إلى العاصمة لتجد العريس ! .

انتسبت مانلي إلى معهد لتخريج المضيفات في الطائرات ، وكان جمالها خير شفيع ، فلما تخرجت منه عملت على متن طائرات الشركة الجوية الفنلندية « فينير » في رحلات لا تتجاوز موسكو والعواصم السكاندنافية .

* * * * *

قلّما يرد ذكر فنلندا في الأخبار وهي البلد المنعزل في الشمال جغرافياً والملتزم بالحياد دولياً حتى جاء العام ١٩٥٢ فإذا هي محط الأنظار يحج إليها الناس من أقطار الأرض ، ذلك أنه جرت فيها دورة مباريات الألعاب الأولمبية في صيف ذلك العام .

هبت فنلندا بأسرها على قدم وساق لتتم الدورة على خير ما يكون . ومن التدابير المعهودة أن جندت طائفة من الفتيات الوسيمات ليرافقن أعضاء الوفود القادمة للمشاركة في المباريات ، وكانت « مانلي » إحداهن . وشاءت الأقدار أن يعهد إليها ، وهي زينة المضيفات ، بمرافقة الأمير محمد علي رضا شقيق الشاه ورئيس شرف الفريق الإيراني .

* * * * *

كان أسبوعا المباريات فترة من النشوة ما عرفت فنلندا مثلها في تاريخها : باقات مختارة من شباب العالم في ديارها وسط إطار من البحيرات والغابات فريد في روعته ، وليالي الصيف في الشمال يعبق فيها الضوء القطبي الفضي فلا تعرف الظلام . كانت مانلي في أوج بهائها فحدث ما ليس منه بد : وقع الأمير في هواها . ولما أطفأت الشعلة الأولمبية في ختام الدورة ظلت شعلة الحب تتقد في أعماق الأمير فعرض عليها الزواج .

* * * * *

عرض مفاجىء فيه نفحة من نسائم ألف ليلة وليلة حقاً ، فتاة ريفية من أسرة فقيرة فيها خمس بنات وكل ما تملك قطعة صغيرة من الأرض وبقرتان يطلب يدها أمير من بلاد الأكاسرة !

لقد أدركت مانلي منذ البداية أن الأمير محمد علي رضا مال إليها وهي بدورها مالت إليه في سمرته الجذابة وتهذيبه الأصيل ، أما أن يذهب الأمر في بحر أسبوعين إلى الحب العارم وطلب الزواج فهذا في نظرها تسرع غير مألوف .

إنه تسرع غير مألوف لأن للحب في بلادها شأناً آخر : ففي فنلندا وجاراتها السكاندينافية يقبل الربيع ، بعد رقود للطبيعة عميق طويل ، متمهلاً متردداً حذراً ، وتتريث الورود في تفتحها بعد أن غطت الثلوج وروت جذورها أشهراً عديدة ، ولكنه ربيع هادىء ناعم مقيم يسكن المرء إليه . هذا في فنلندا أما في إيران وبلاد الشرق إجمالاً فما يكاد الشتاء يعزم على الرحيل حتى يسارع الربيع تتفجر فيه الزهور والرياحين وتغرد الطيور وتنطلق أسراب النحل والهوام ، ربيع هازج يتدفق بالحياة ولكن ما تدري فقد تعاجله لفحات حر الصيف أو ترتد عليه لسعات برد الشتاء .

أحب الأمير « مانلي » وفق ربيع بلاده ، ومالت « مانلي » إلى الأمير وفق ربيع بلادها وشتان ما بين الربيعين . ثم إن « مانلي » لم تكن تعرف الكثير عن إيران هذا البلد الغريب البعيد .

وأدرك الأمير ما يخامر « مانلي » فعمد إلى التريث ووجد أنه من حقها أن تتعرف إلى وطنه فقرر دعوتها إليه .

* * * * *

دفعاً للأقاويل لم يعمد الأمير إلى دعوة « مانلي » لوحدها بل أوحى إلى اللجنة الأولمبية القومية في طهران بأن تدعو كل المضيفات اللواتي رافقن الفريق الإيراني في هلسنكي تقديراً لجهودهن ، وإنما كانت « مانلي » بالطبع بيت القصيد .

حرص الأمير علي أن تتم هذه الزيارة في أبهى ما يكون فجاءت حلماً من الأحلام لهاته الفتيات الفنلنديات يذكرنها ما حيين شهدن خلالها بلد الأمير في أكمل صفحاته في حفاوة ورعاية وإكرام وهدايا ، وعالم الشرق في آثاره وكنوزه ، في صفاء سمائه ونجوم لياليه ، في

عطر الفل والياسمين ... وفوق كل هذا التمتع بصحبة المضيفين الشباب الإيرانيين ذوي العيون السود والحديث المعسول .

لم يفاتح الأمير « مانلي » في موضوع الزواج وهي ضيفة في بلده فلا حرج ولا إحراج وإنما تواعدا على أن يعود الأمير إلى فنلندا في أواسط الخريف ليلقاها وكله أمل في استجابتها لعرضه إذ ذاك .

* * * * *

على متن الطائرة في طريق العودة من طهران إلى هلسنكي أخذت « مانلي » تجمع شتات أفكارها : لقد أحبت إيران وأهلها ما في ذلك ريب ولكن زيارة عابرة شيء والمقام مدى العمر شيء آخر ، ثم إنها بنت الريف الفنلندي في بحيراته وغاباته أين منها أحياء شيراز وأصفهان ؟ وهي درجت على عيش متواضع قانع أين منه الترف والبذخ في أوساط البلاط في طهران ؟

إنها بين بين لا تستطيع أن تحزم أمرها ففي الاستجابة للأمير ما يغري كثيراً ولكن فيه جانباً من المغامرة . وسترى ما يوحي إليها قلبها حتى أواسط الخريف .

* * * * *

أقبل الخريف ، وأخذت بوادر الثلوج تنسج على العاصمة الفنلندية غطاءَها الأبيض . وفي اليوم المرتقب لوصول الأمير قصدت « مانلي » إلى مطار هلسنكي لاستقباله في أجمل زينة وهي الحورية من حوريات بلاد الشمال ، زاد في بهائها إشراقة من الطمأنينة والرضوان فقد كان قلبها يحدثها أنها ستستجيب لطلب الأمير وأنه لن يكون خائباً ولن يعود لبلده وحيداً .

وفي مكتب الشركة في المطار أخذت زميلاتها يداعبنها قائلات : إنه أمير الأحلام قادم من ربوع شهرزاد على بساط الريح ليلقى من أحب . وتضيف إحداهن : بساط الريح لحاشية الأمير أما سموه الإمبراطوري فعلى سجادة من أفخر ما صنعت إيران !

* * * * *

في هذا الجو المرح وصل قنصل إيران الفخري في هلسنكي « برند سالكومين » إلى المطار وكان من واجبه أن يستقبل الأمير وإنما كان في حال ظاهر من التأثر والانفعال ، فاقترب

من « مانلي » وأخذ بذراعها ودعاها لسيارته . ودهشت « مانلي » واضطربت ، و لم يكن بد من أن يبلغها نبأ الحادث : منذ حوالي ساعة تلقى مخابرة هاتفية من طهران فيها أن الأمير كان في طريقه إلى المطار على متن سيارته « بوغاتي » الخاصة يسوقها بنفسه وفي سرعة بالغة فاصطدمت بسيارة شحن ولقي الأمير حتفه من فوره .

* * * * *

للفنلنديين في الجلد والصبر شأن عجيب . لم تجزع و لم تفزع . حزمت أمرها فتخلت عن عملها في الشركة ، وعادت إلى قريتها « توركاماليـنا » . زهدت بالدنيا وبما فيها . في هدوء الريف تستعيد ذكرياتها وتتساءل : ماذا صنعت بحياتي ؟ وهل أجرمت بحقه ؟ رجل شهم تقدم إليّ بقلبه فتدللت ، وبلد مضياف فتح لي أبوابه فترددت !

ظلت في عزلتها في القرية حوالي سنتين تساورها عقدة الذنب : أو لم تكن عودة الأمير من أجلها وحادث السيارة من جرائها ؟ حتى قصد إليها « برند سالكومين » قنصلنا الفخري وهو من كبار تجار الورق وأصر على أن تعود إلى هلسنكي لتعمل في مكاتبه .

لقد كان الأمير من خيرة أصدقائي وجمعتنا الدراسة الإبتدائية في مدرسة خاصة ملحقة بالقصر في طهران . ومن قبيل الوفاء والذكرى أدعو « مانلي » لمرافقتي كلما قدمت إلى هلسنكي تجد فيها تسرية وسلوى .

* * * * *

ظننت أن القصة انتهت عند هذا الحد ولكن السيد كاظمي تطلع إليّ مبتسماً وأضاف :

ــ أطلت عليك الحديث ولما أبلغ بيت القصيد منه . بيت القصيد أنت محوره ! بعد حفل الأمس في مدرج الجامعة بدت لي « مانلي » ساردة النظرات في وجوم ما عهدته لديها فسألتها عما هي فيه فقالت بعد لأي :

ــ إنه صديقك الذي حياك في المشلح ... أما لحظت الشبه الكبير بينه وبين الأمير محمد علي رضا ؟

وأضاف صديقي :

ــ الحق أنني لحظت هذا الشبه منذ تعارفنا لعهد طويل ولكنني ما علقت عليه .

ــ طالما أشار أصحابي إلى الشبه بيني وبين الشاه وتأكد لي هذا من صوره في

الصحف ولا سيما يوم لقيته في زيارة له إلى موسكو وما سبق لي أن رأيت الأمير ولكن من الطبيعي أن يكون شبيهاً بأخيه الشاه .

وأضفت في شيء من الدعابة :

— وإن أصحابي يؤكدون أن هذا الشبه إجمالي وأن سماتي أقرب إلى النعومة والحضارة بينما سمات الشاه إلى الخشونة والبداوة أقرب !

وضحكنا ، ورغبت إليه أن ألقى « مانلي » قبل عودته إلى استوكهولم في الغداة فتردد ثم قال في مزيج من الجد والفكاهة :

— لا تلعب بالنار ... لا تزدها ضراماً ... لا تحم حول الحمى ... قد تقع فيه .

* * * * *

جمعتنا مائدة في مقصف المطار لوداع صديق الطرفين السيد الكاظمي ، فقدمت إليه « مانلي » كهدية سطلاً فضياً هو نموذج مصغر للسطل الخشبي التقليدي الذي يستعمله الفنلنديون لصب الماء البارد على أجسامهم بعد حمام « السونا » الحامي ، ثم أخرجت من محفظتها إطاراً صغيراً فيه صورة الأمير الراحل وأخذت تتأمل فيها وتتفرس بي ... ثم تتأمل فيها وتتفرس بي ... حتى قالت :

— لولا أن الأمير قضى منذ ثلاثة أعوام لقلت إنه جالس قبالتي !

وتماسكت يدانا وسكنّا . وكأن الكون كله سكن معنا . وأفقنا على السيد الكاظمي يجمع هديته ويلقي علينا تحية الوداع .

☆ ☆ ☆

لقاء في الدار البيضاء

صديق العمر طاهر بن سيدي حنون أقصده إذا غمَّ عليّ فيتظاهر بتجاهل ما يساورني وينطلق يحدثني فإذا بي أنتقل إلى دنيا حكاياته فأنسى ما أنا فيه . حدثني يوماً قال :

قصتنا هذه يدور معظم أحداثها في برلين . وبرلين ، عاصمة ألمانيا في الأمس ومن جديد ، فريدة بين مدن العالم في مولدها وموقعها .

أما موقعها فأوجزه في ثلاثة أسئلة : هل من مدينة تبلغ رقعتها خمسين كيلومتراً في خمسة وثلاثين ؟

هل من مدينة نصف رقعتها حدائق وساحات خضراء وغابات ؟

هل من مدينة ربع رقعتها عقود من الأنهار والبحيرات ؟

هذه هي برلين في واقعها .

* * * * *

أما مولدها فأوجزه لك في الحكاية التالية :

كان في أوروبا الحديثة ، أيام كانت أوروبا تزهو على الدنيا ، منارتان : باريز وفيينا . باريز مدينة النور وعاصمة ملوك فرنسا منذ ألف سنة ، وفيينا بلد الدانوب الأزرق وعاصمة إمبراطورية النمسا والمجر وملحقاتهما . وجاء ملوك بروسيا الألمان يحكمون مقاطعات واسعة ويقودون جيوشاً جرارة ولكن ليس من عاصمة أو مدينة كبرى تليق بهم فوقعت أعينهم على بقعة جميلة غنية بالغابات والأنهار والبحيرات تتجاور فيها سبع قرى صغيرة فجمعوا بينها في شوارع عريضة وأقاموا الجسور والسدود وأنشأوا المعالم والقصور ، والحسد بين الملوك لا يقل عن الحسد بين الجيران ، فكانت برلين ، عاصمة ملوك بروسيا أولاً ، وعاصمة قياصرة ألمانيا ثانياً ، وعاصمة الكابورال أدولف هتلر مؤخراً !

كان لسان حال مؤسسي برلين : إذا عرفت باريز بالأناقة والحسن ، وعرفت فيينا بالفن والظرف فلتعرف برلين بالعظمة والجبروت . طابع الألمان من قبل ومن بعد .

* * * * *

والعجيب ، وهذا بيت القصيد ، أنه في ذلك الوسط الريفي البدائي المتخلف قامت برلين ، والبلاط الإمبراطوري فيها ، تطمح في أن تكون المنارة الأولى في القارة ، فاقتبست خير ما في الغرب والشمال ، وكان فيما يتعلق بقصة اليوم ، أن جمعت ذوات السوار فيها ، إلى ما طبعن عليه من حيوية وثابة ، أناقة إخواتهن في باريز ودلال قريباتهن في فيينا وجمال جاراتهن السكاندنافيات .

وكان من جراء هذين المولد والموقع أن ذهب طيب هواء برلين وأنوثة نسائها مضرب الأمثال .

طوال عقدين من السنين قضيت في برلين ثلاثة أشهر من كل عام حتى تساءل بعض صحبي ما الذي يدفع بطاهر ليتجاوز غرب أوروبا كله فيقصد مدينة ذهبت أمجادها تحت أنقاض الهزيمة في الحرب الأخيرة . ويضيف أحدهم في دعابة ماكرة ، مدينة يعيش فيها نصف مليون أرملة من مخلفات تلك الحرب !

* * * * *

في برلين هذه يدور معظم أحداث القصة ولكنها بدأت بعيداً عنها . بدأت على شاطىء المحيط الأطلسي من المغرب . أوليس من عبث الأقدار أن تبدأ أقوى صلاتي ببرلين ، وقد عشت فيها أمداً طويلاً ، على بعد ثلاثة آلاف كيلومتر منها ؟

* * * * *

فندق « مولاي يوسف » في « الدار البيضاء » جدير بالاسم الذي يتشرف به . ما اندفع في موجة الحديث وحافظ على طابع المغرب الأصيل : قاعات رحبة وأثاث مريح وأضواء ناعسة يتناسق فيها خرير نوفرة من الماء عابثة وهمس الحديث بين الجلساء ، وفي الجو أنغام موسيقا أندلسية ناعمة ونفحات العنبر والنعنع من شراب الشاي التقليدي . روح وريحان وجنات نعيم .

صار هذا الفندق من معالم المدينة يهوي إليه السائحون والمواطنون على السواء ، قلة للإقامة فيه وكثرة للفرجة وكأس من الشاي ، ومن عادتي أن أقصد إليه ما وسعني حين أجدني في الدار البيضاء .

* * * * *

في ذات يوم شهدت في البهو الكبير من هذا الفندق سرباً من السائحات الفتيات يلفتن الأنظار : الواضح أنهن قدمن من بلاد شتى تشهد بشرة بعضهن أنهن من بنات أفريقيا السوداء وتعرف من سمات بعضهن أنهن من قلب آسيا من الهند وجزيرة سيلان ، وبرزت بينهن واحدة ممشوقة القد غريبة السمات في شعر كموجات الذهب وفي عينين خضراوين يتحدان القديسين والشياطين .

ما ألف فندق « مولاي يوسف » مثل هذا السرب من بنات العالم الثالث اندست فيه هذه الغادة الشقراء . ولحظت أنها كانت توجه رفيقاتها وتتحدث إليهن باللغة الألمانية . خطر لي أنها قد تكون من برلين ، ولأهل برلين في حديثهم لهجة ونبرة خاصتان بهم ودفعني الفضول إلى التأكد مما ذهبت إليه ، وليس أهون من سؤالها مباشرة ولكني عمدت إلى أسلوب آخر .

* * * * *

في برلين صحيفة يومية تدعى « تاغ شبيغل » أي « مرآة اليوم » ، يكاد يقتصر انتشارها على مدينة برلين . وهنالك منذ سنين عديدة رجل يحمل نسخ هذه الجريدة ويدور بها في الشوارع والمحلات العامة وينادي عليها في نغم رتيب طريف لا يحيد عنه : يمد ويطيل في الكلمة الأولى من اسم الجريدة « تا اا ... غ » ، ثم يخافت ويستعجل في الكلمة الثانية « شبيغل » ولهذا الرجل شعبية ويعتبر وجهاً من فولكلور برلين وكثيراً ما يتندر القوم فيها بتقليد ندائه تسلية وعبثاً .

* * * * *

اقتربت من قائدة السرب وأطلقتها جهاراً : « تا ااا ... غ شبيغل » . كان لندائي هذا فعل السحر وكأنه كلمة السر المتفق عليها للتعارف والتقارب فتوجهت إلي في انطلاق وبشر . كنا أشبه بمواطنين يلتقيان على غير موعد في حفل غريب في بلد بعيد . ريحة الأهل كما يقولون ولو أنه لا يجمع بيننا ألف جد وأن بين موطنها وموطني ما بين المشرق والمغرب ، وتعارفنا :

— طاهر بن سيدي حنون . أهلاً بك وبمن معك في الدار البيضاء .

— هيلدا زولمان . ألف شكر .

— إنك قادمة من برلين ولا ريب .

— إنني من برلين ولكننا مقيمات في الكاميرون ، وهن زميلاتي ونحن في زيارة قصيرة في المغرب .

— زميلات في الكاميرون ! وما الذي أخذ بك من برلين إلى الكاميرون ؟

وفي جلسات تالية روت لي قصة حياتها ، قالت :

* * * * *

— هل تعرف حي « هانزا » في برلين ؟

— وكيف لا أعرفه وحديقة « زوو » الكبرى حوله أتجول فيها عصر كل يوم كلما وجدت في برلين .

— حسناً ، هل تعرف البناء العالي ذا الطوابق العشرة المنفرد فيه ؟ في الطابق التاسع من هذا البناء قضيت ثمانية عشر عاماً ولا أحلى في الظاهر : أسرة بورجوازية ميسورة ، زوج طيب ودود ، ولدان في طلعة الربيع ، هذا في الظاهر كما قلت أما في الباطن فسآتيك بأخباره .

* * * * *

نشأت في مقاطعة « شيليزيا » من شرقي ألمانيا حين كانت شيليزيا ، حتى نهاية الحرب العالمية الأخيرة ، مقاطعة ألمانية ، في قرية صغيرة تدعى « نوستال » ، وكان لأبي مصنع للآجر توارثته أسرتنا أباً عن جد منذ أجيال وبقربه بحيرة وعلى جنب من هذه البحيرة قامت دارنا ، أتساءل مراراً ما صنع الله بكل هذا وشيليزيا اليوم مقاطعة بولونية رحل عنها أهلها الألمان ؟ ما أدري ولكنني رأيت في مصور جغرافي حديث أن اسم القرية صار « نوستولكي » ، وأنه لم يعد أثر للبحيرة !

وفي ما صار إليه بلدنا عبرة فيها ما يضحك ويبكي : عزم النسر الألماني في جبروته النازي على أن يقع شرق أوروبا من بولونيا و أوكرانيا إلى روسيا ... تحت جناحه فكانت الخاتمة أن فقد جناحه كاملاً وفيه مقاطعتنا شيليزيا ! وما بقي من النسر الكسير انشطر إلى دولتين شرقية وغربية متنافرتين ! ولكن مالنا ولأحداث التاريخ .

* * * * *

بدأت حياتي في قريتنا كما خطط أهلي لها ، والتخطيط البعيد المدى للكبيرة والصغيرة طبع عليه بنو قومي من قبل أن تخلق وزارات التخطيط بأجيال . كان الهدف ، وفق التقاليد والأعراف ، أكون زوجة وأماً وربة منزل ، وبدأ في مدرسة للبنات في القرية المجاورة « سولر هوف » فكنت وجاراتي البنات نقضي حوالي ساعة كل يوم على الدراجة ذهاباً وإياباً ، وفي بحر الشتاء يهبط ميزان الحرارة أحياناً إلى العشرين تحت الصفر فلا رحمة ولا تهاون . إنها سنة فناء الضعيف وبقاء الأفضل . عقب هذا دراسة عملية في التدبير المنزلي ومبادىء التمريض والإسعاف الأولي والعناية بالأطفال والعزف على البيانو والرقص وصنع الحلويات والطهي ... ذلك أن التخطيط لا يغفل عن واجبات الغد في الحرب والسلام ، والحرب عنصر قائم في تاريخنا لا عاصم منه .

* * * * *

قضى هذا التخطيط بأن يكون ابن عم لي يدعى « كونراد » زوجاً لي بعد أن يتم دراسة الطب في جامعة « برسلاو » عاصمة المقاطعة ، أمر متفق عليه في الأسرة منذ طفولتنا ما استشرنا فيه ولا تحدث به إلينا أحد ، وكان في حكم الطبيعي والمعهود . قد يثور الشباب اليوم على هذا الإجراء ولكنه في الواقع أريح للبال ، وقضي الأمر الذي فيه تستفتيان !

وما كنا للغيب حافظين : ثم عقد قراننا في بحر الربيع فما دنت نهاية الصيف حتى نشبت الحرب العالمية الأخيرة .

* * * * *

وأي ربيع ! ما أظن أن بلداً عرف مثله في قديم الزمان أو حديثه . كان العهد النازي في إبانه وشعارنا القومي : أمة واحدة ، رايخ واحد ، زعيم واحد ، وأي زعيم هو أدولف هتلر الذي آل على نفسه أن يقرر مصائر أوروبا ، والعالم من ورائها ، لألف سنة ! واندفعنا جميعاً في إيمان وزهو وخيلاء : أولسنا نحن أبناء العرق الآري المختار ؟ أوليست ألمانيا بلادنا فوق الجميع ؟

التحق زوجي كونراد ، كطبيب ناشيء بسلاح البحرية في المدرعة « الماريشال هندنبرغ » في أسطول بحر الشمال وانتسبت إلى منظمة الفتيات النازية . عشنا في دنيا من الأحلام نتطلع إلى مستقبل نتناول فيه النجوم من السماء .

ما أنسى حفل زفافنا في ذلك الربيع . والحياة فيلم سينمائي طويل تتوالى فيه الصور من

صرخة الوليد الأولى حتى النفس الأخير ، وفي هذا الفيلم صور قليلة مختارة تظل في خاطر المرء ما حيا . صور زفافنا أراها نصب عينيّ اليوم وفي كل يوم : كنيسة القرية مزينة بباقات الزهور ، أهل القرية في ثيابهم الريفية التقليدية ، حرس الشرف من ضباط البحرية في زي المراسم الكحلي الغامق تلمع فوقه السيوف الفضية القصيرة ، شباب يشرح الصدر ويملأ العين ، جوقة الترتيل من رفيقاتي في المنظمة النازية وعلى صدورهن شارة الصليب المعقوف وتتدلى على أكتافهن ضفائر الشعر الطويل ، صبايا في زهر التفاح ونقاوة الياسمين ، وقبلة الأنظار زوجي كونراد وأنا في طلعة العشرين . ولكن ما لنا وللذكريات والحنين .

* * * * *

الحق أنه لم يكن في إعلان الحرب مفاجأة لنا فلا عاصم من تفجر ذلك الحماس المتقد ، وكان أن اندفعت الجحافل النازية نحو الشرق وأنشب نسرنا مخالبه في بولونيا المسكينة . ولم تنغص الحرب علينا الحياة ولو أننا كنا على مقربة من الحدود البولونية فقد حسب التخطيط حسابه للحرب . كل ما في الأمر أن العمال الألمان في مصنع الآجر لدينا انخرطوا في الجندية وحل محلهم بعد أيام الأسرى البولونيون يعملون دون أجر لقاء لقمة العيش وهو أجزى لنا .

كنت أتلقى رسائل كونراد من المدرعة « المارشال هندنبرغ » ولم يكن عليه بأس وفي أعياد الفصح قدم في إجازة قصيرة وكان يتوقع الوليد البكر فإذا بها مفاجأة : وضعت توأمين حبيبين ، ملاكين صغيرين ، دعونا الواحد رودولف والثاني آدولف تيمناً باسم الزعيم آدولف هتلر .

حول مهدي هذين الطفلين وفي هدوء قريتنا كنت أخطط المشاريع لحياة أسرتنا بعد عودة زوجي المرتقبة وحلول السلام ، فقد كان الاعتقاد السائد أن الحرب لن تدوم طويلاً وأن بولونيا لن تلبث أن تركع على قدميها فيمتد سلطان الرايخ الألماني إلى ما ورائها .

كان هذا المتوقع ولكن ما حدث ما لم يكن في الحسبان فقد انتشى نسرنا من انتصاراته في الشرق وظن أن لن يقدر عليه أحد فعمد بعد أشهر إلى انقضاض صاعق على فرنسا وما حولها في الغرب . وفي مفاجأة ذاهلة عاد فانشب مخالبه في روسيا رغم ميثاق عدم الاعتداء المعقود حديثاً بين البلدين .

ازددنا حماساً واعتزازاً : هل عرف التاريخ نسراً سيطر بجناحيه على عالم يذهب من

جبال القفقاس إلى باريز ومن النروج إلى شمال افريقيا ؟

* * * * *

وليس أقسى على المرء من اليقظة على الواقع بعد غفلة من نشوة المطامح والأحلام . أخذت المغلفات الموشحة بالسواد تتوالى على قريتنا وفيها رسائل تنعي فيها القيادة العسكرية العليا المقاتل الشهيد لذويه . وأهل قريتنا « نوستال » في حدود ثمانية آلاف فما كان ينقضي شهر إلا وتدق الرسالة السوداء أحد الأبواب . والمنايا خبط عشواء في الحرب وفي السلام على السواء .

كنا نزور أهل الشهيد تعزية ومواساة ، وأكثرهم من النساء فقد رحل الرجال إلى الجبهة للقتال أو للعمل في المصانع الحربية فكنت أعجب بما طبعت عليه بنات قومي من صبر على المكاره ، لا يصدرن عن شكوى رابطات الجأش عصيات الدمع .

وفي صباح كل يوم حين يقدم ساعي البريد كنت أمسك قلبي بيدي وأدعو الله أن يحرس زوجي كونراد رحمة بالطفلين البريئين .

* * * * *

في مساء يوم أعلنت الإذاعة بعد النشيد الوطني منح وسام الصليب الحديدي ، وهو أسمى الأوسمة قدراً ، للمدمرة « المارشال هندنبرغ » للبسالة التي أبداها رجالها في معركة بحر الشمال غرقت في خاتمتها وهلك كل من عليها . وجاء بعد أيام المغلف الموشح بالسواد .

إذا فلن يرى كونراد طفليه أبداً ، ولن يراه الطفلان ولن أراه أبداً .

وبدا أن موجات انتصارات جيوشنا بلغت مداها الأعظم وأن نسرنا غالى في هجماته ومدى انطلاقه فجاء الجزر بعد المد وتوالت الأحداث علينا واقترب الجيش الأحمر وهجرنا قريتنا ولجأنا إلى الغرب . طفلان على ذراعي سيراً على الأقدام حيناً وفي عربة ريفية ذات حصان أحياناً حتى برلين في شتاء تآمر علينا فكان من أقسى ما عرفته ديارنا ، وغارات الحلفاء الجوية من فوقنا ، فما كدنا نصل برلين حتى جاءت الضربة القاصمة ، أعني سقوط برلين وما رافقه من دمار وهلاك .

* * * * *

كانت ألسنة النيران ما تزال مندلعة فيما بقي من مباني برلين حين عمدنا إلى رفع الأنقاض وجمع ما تحتها . هذا النسر الجرماني من أعجب ما خلق الله : تحطم حتى ظن أنه لن تقوم له قائمة ، فإذا هو يتحامل على نفسه يحاول لملمة جراحه وجمع ريشه الموزع لاستعادة رمق الحياة . أما وقد درست مبادىء التمريض في فتوتي فكان علي أن أعمل كممرضة مساعدة في ركن متهدم هو كل ما بقي من مستشفى « سانتاكا تارينا » الكبير ، وكنت أودع طفليّ رودلف وآدولف خلال ساعات العمل لدى سيدة مسنة تدعى اليزا شونبرغ .

* * * * *

يقيم مع هذه السيدة ابنها « هانز » وهو في حوالي الثلاثين من العمر ويعاني عرجاً خفيفاً من جراء شظية قنبلة أصابته في الجبهة الروسية . كنت ألقاه أحياناً في منزلهما ونتناول الحديث لماماً فعلمت أنه نشأ صحفياً وأنه يعمل في دائرة الإعلام في محافظة برلين تحت إشراف سلطات الاحتلال الحليفة ، شأن الإدارات العامة في ألمانيا كلها إذ ذاك .

عطف هذا الرجل على الطفلين وأحبهما كما أنس إليه الطفلان وأحباه . وكان بحكم منصبه وصلاته يتدبر لنا بعض الحليب المجفف والمعلبات من الغذاء في عهد عم فيه التقنين الشديد والحرمان . وتوثقت الصلات بيننا وكأننا أسرة واحدة قربت بين أفرادها تلك الظروف القاسية التي كنا نعانيها .

مضى على هذا قرابة عام وفي ذات يوم أسرت إليّ السيدة شونبرغ حديثاً قالت :

— منذ أشهر وبودي أن أفاتحك بأمر ولكنني لم أجرأ عليه . لحظت ولا ريب أن ابني هانز يميل إليك ، وأنه يحب الطفلين كثيراً وهو وحيدي ، وأمنيتنا أن تكوني زوجة له . زوجة له أمام الله والناس أما في الواقع فلا أكتمك أنه لم يعد قادراً على القيام بالواجبات الزوجية من جراء العملية التي عاناها عقب الجرح الذي أصابه في أعلى ساقه اليسرى في الجبهة . وفي هذا تضحية منك نقدرها كل التقدير وأنت في طلعة الشباب ولكنني واثقة أنك ستجدين في هانز رفيق الحياة الوفي الشكور ويجد فيه الطفلان الأب الرؤوف .

* * * * *

كانت صدمة أليمة أعادت إليّ ذكريات زوجي الراحل كونراد والأيام الهانئة والليالي التي عشناها معاً عيشاً سوياً . كنت في غنى عن هذه الصدمة ، ونحن فيما نحن فيه من

شظف العيش أبعد ما يكون عن الزواج والصلات الجنسية .

لم أحر جواباً وإنما انهمرت الدموع من عيني فأخذت الطفلين وانصرفت أكاد لا أجد طريقي .

* * * * *

وفي هدوة الليالي كنت أعود إلى نفسي أستعرض الأمر : إنني وحيدة والمرأة الوحيدة لا يطيب عيشها مهما كان شأنها . والشبان من جيلي عصفت بهم رياح الحرب وصار معظمهم بين شهداء ومشوهين أو في معسكرات الاعتقال والأسر فلن يتيسر لي الزواج ، ثم إن هنالك ولديّ رودلف وآدولف لا يحسن أن ينشأ هذان الطفلان دون إشراف رجل . إنهما بحاجة إلى الأب أو من يقوم مقامه نفسياً وخلقياً وروحياً . ولرعاية الأب أثرها في مستقبلهما . و« هانز » رجل طيب خلوق لا يعيبه عجز أصابه من جراء أداء واجبه الوطني ولا يضيرني عجزه هذا ، وخير لي أن أزهد بالصلات الجنسية وقد ولى الحب وما إليه مع زوجي الأول كونراد في أعماق بحر الشمال .

* * * * *

تم عقد القران في مكتب دائرة الأحوال المدنية في برلين في حفل هو أبسط ما يكون اقتصر على السيدة شونبرغ الوالدة وعلى شاهدين اثنين زميلة لي من المستشفى وزميل له من المحافظة . كل ما في الحفل باقة متواضعة من الزهر وزجاجة خمر فوار تقليداً للشامبانيا فما كانت أوضاع برلين إذ ذاك وظروف زواجنا تدعو إلى مزيد من البهجة والانشراح .

وعادت إلى خاطري ذكرى قراني الأول انتابني معها شبه دوار أشعر معه أن الأرض تنخسف من تحت قدميّ . أين من عينيّ ذلك الحفل الضاحك السعيد في إبان ربيع الحياة ! أين من عينيّ شاهدوه من شبان وصبايا وقريتنا « نوستال » كلها في عيد ! فرحة العمر مرة في العمر لا مرتين !

* * * * *

لم تكن هذه الزيجة البيضاء هي الهدف وإنما أردت من ورائها أن يعيش الطفلان في جو عائلي وكأن هانز أبوهما وكأنهما ولداه . والحق أن هانز كان في رعايتهما فوق كل ثناء وقد رغب في أن يتبنى الطفلين حكماً وشرعاً ولكنني فضلت أن يحتفظ الولدان باسم أبيهما

« زولمان » حفظاً على النسب والأصالة .

وهكذا قضينا ثمانية عشر عاماً في حياة هادئة لم يحدث خلالها ما يعكر صفوها ولا ما يبدل من رتابتها حتى غادرنا ولداي في العام الفائت بعد أن تخرج رودلف من كلية الهندسة الكهربائية والتحق بمصنع « اوزرام » للمصابيح الكهربائية في هامبورغ ، وتخرج آدولف من كلية التجارة وانتسب إلى شركة « لوفتهانزا » للطيران في مكاتبها الرئيسية في فرانكفورت .

ما مضت أيام على مغادرة ولديّ حتى شعرت بالفراغ من حولي . كانا محور حياتي وهدفها فلما شبا عن الطوق وغابا لم يعد لحياتي محور ولا هدف ، وساورني الانقباض والوجوم حتى أطل علينا بعد شهرين زائر لم يكن بالحسبان .

* * * * *

اجتمع في ربيع ذلك العام في برلين وزراء خارجية الدول الأربع الكبرى المنتصرة في الحرب الأخيرة والمسؤولة دولياً عن برلين للبحث عن وضع العاصمة الألمانية القديمة والصلات بين شطريها الشرقي والغربي ، فقدم معهم لهذه المناسبة عدد كبير من الصحفيين ومراسلي وكالات الأنباء والإذاعات . واتفق أن جرت في ذلك الأسبوع وفي برلين أيضاً المباراة الختامية في كرة القدم لكأس أندية أوروبا وأطبق على برلين عشرات الألوف من هواة كرة القدم وأنصار الفريقين المتباريين . ولم يكن من سبيل لإيواء القادمين جميعاً في الفنادق وما إليها فوجهت محافظة برلين نداء إلى سكانها تدعوهم لإيواء بعض هؤلاء في دورهم ما استطاعوا تبياناً لوجه برلين المضياف .

وفي عصر يوم هتف إليّ زوجي هانز من مكتبه يقول إنه تعذر تدبر غرفة في فندق للمستشار الصحفي في السفارة الإسبانية في بون فهل من حرج في إيوائه لدينا بضع ليال ؟

أما وأن غرفتي رودولف وآدولف شاغرتان ، فلم أجد بأساً .

* * * * *

عاد هانز في المساء يرافقه الضيف المرتقب ، السينيور بدرو رونيز دالكانتارس . منذ اللحظة الأولى التي تقابلت فيها عينانا عرفت أنه سيكون له شأن في حياتي وأنه عرف هذا بدوره . وقلب المرأة دليلها ، وهو لا يخطىء في هذا المجال . فارع القامة في سمات شرقية

وسمرة جذابة يناهز الأربعين . لو كان لي أن أختار بين الرجال لما اخترت سواه ، ولكن متى كان للمرأة حق الخيار ؟ لقد نالت المرأة كثيراً من حقوقها إلا الحق الأخطر شأناً في الحياة : اختيار الرجل الذي تشاء . يظل هذا الحق وقفاً على الرجل يختار المرأة التي يشاء !

تحاملت على نفسي لإخفاء ما يساورني . واتفق أن جمعت بين السنيور بدرو وزوجي هوايتان : لعبة الشطرنج وكرة القدم ، فقضيا السهرة بين رقعة الشطرنج وجهاز التلفزيون وأنا متظاهرة بالانصراف إلى شؤون المنزل . كنت وضيفنا الإسباني نتحاشى تبادل النظرات فإذا ما التقت عينانا أحسست برعشة وكأنني لمست سلك تيار كهربائي .

* * * * *

لم أعرف النوم في تلك الليلة . عادت إليّ أهواء ونزعات ورغبات عهدي بها بعيد .. بعيد منذ أيام زوجي الفائت كونراد وأخذت أتقلب على فراشي ، فللمرة الأولى يرقد في منزلي رجل كامل الرجولة . قد تخمد البراكين في الظاهر ولكن يغلب أن تظل النيران تتأجج في الأعماق فإذا ما طرأ ما يثيرها اندفع لظاها . وعجبت لأمر هانز كيف تذهب به الغفلة إلى استقدام هذا الضيف يقضي الليلة في غرفة مجاورة تحت سقف واحد ؟

* * * * *

استغرقت الزيارة خمسة أيام بلياليها بذلنا طوالها ما وسعنا حفاوة وإكراماً ولكنها أرهقت أعصابي : أرق وتوتر أعصاب في الليل ، وتجمل وتجاهل في النهار ، زاد على هذا بضعة حوادث وقعت من قبيل الاتفاق أثارت شجوني أورد منها الحادثين التاليين :

وقع الأول في سهرة في منزلنا وقد كان في ركن من البهو الرئيسي صورتا ولديّ أخذتا لهما في حفل تخرجهما من الجامعة . تطلع إليهما السنيور بدرو فأعجب بما يبدو فيهما من وسامة وبهاء طلعة ، فتوجه إلى هانز قائلاً : زينة وأي زينة هذا الشابان ، ومن حقك أن تفخر بإنجابهما . ولم يكن بالطبع يعرف شيئاً عن وضع هانز وزواجي الأول ، فأحرج هانز وتلعثم ، وغصصت بريقي .

أما الحادث الثاني فقد كان على مدخل منزلنا بطاقتان الأولى باسم زوجي شونبرغ والأخرى باسم ولدي زولمان نسبة لوالدهما . ويبدو أن السنيور بدرو لحظ البطاقتين فسألني ، والصحفي كثير الفضول ، ماذا تعني بطاقتان وفي المنزل أسرة واحدة ؟ وأحرجت

ولم يكن بد من الإيضاح فرويت له حكاية زواجي الأول وولدي منه ثم زواجي الثاني وإذا به يتأمل بي ونتبادل نظرات بعيدة المغزى والمدى تحدث بما لم تنطق به شفاهنا وكأننا نتوق إلى أن نتفاتح في حديث فلا نجرأ عليه .

غادرنا السنيور بدرو يلهج بالشكر وتواعدنا على التراسل والتزاور .

* * * * *

كانت هذه الزيارة نقطة تحول في حياتي وكأنها صارت شطرين اثنين : شطر قبل زيارة السنيور بدرو وشطر بعدها . كنت غافلة عما أنا فيه قبل الزيارة راضية قانعة وها أن قلبي يحدثني أن الشطر الثاني لن يكون مثل الأول ولا يجوز أن يكون .

وأخذت ، وقد خلا المنزل من ولدي الشابين ومن السنيور بدرو أتسائل ماذا صنعت بحياتي وأستعرض مراحلها :

زواج أول قصير العمر ما كادت تتفتح أزاهيره حتى ولى زوجي في ظلمات الأعماق . أهوال الحرب لاحقتني في زهرة حياتي وعلى صدري طفلان يتيما الأب . زواج ثان ، إن صح أنه زواج ، لا نور فيه ولا نار التزمت به في ظروف قاسية . ضحيت بنفسي من أجل الطفلين وكرست خير سني حياتي لخدمة زوجي الثاني ، والآن وقد بلغ الولدان مرحلة الشباب وانطلقا كل إلى غايته وألف هانز ما به من عاهة أو ليس لي حق في حياة سوية ؟ أما آن لي أن أتحرر مما أنا فيه ؟ لقد ظلمت نفسي ما في ذلك ريب .

* * * * *

قضيت بضعة أشهر في هذه الهواجس أقلب الأمر لا أهتدي سبيلاً . وكنت أتراسل والسنيور بدرو ، ورسائله أقرب إلى التلميح لا التصريح وفيها ما يغري ويشوق بين السطور لا في السطور ولعل هذا الأسلوب في المراسلة طراز من الدبلوماسية البارعة أو الإعلام الحديث ! وحدث أن انتقل صاحبنا من السفارة الإسبانية في بون إلى وزارة الإعلام في مدريد فكتب يدعونا لزيارته فيها . واغتظت لهذه الدعوة إذ لا جدوى في زيارته رفقة زوجي ولا أجرأ على أن أذهب إليه لوحدي .

وبعد تفكير طويل رأيت أن الخطوة الأولى الواجبة هي نوال حريتي فعزمت على الطلاق ولو أنني أجهل ما سيليه .

* * * * *

حدثت هانز بما عزمت عليه فكان فوق كل ثناء . قدر ظروفي حق قدرها ونزل عند إرادتي طائعاً وأكد أن لي عليه فضلاً لن ينساه وهو يشعر بعقدة الذنب فقد ضحيت من أجله عمراً وتعهد بإنجاز الإجراءات القانونية للطلاق وتخصيص راتب لي وعرض عليّ أن يتنازل لي عن الدار وكل ما فيها وأن ينتقل إلى طابق صغير ورثه عن والدته .

لم أرغب في بقائي في تلك الدار لوحدي ولا في نزوح هانز عنها ولي عمة تعيش في سالزبورغ في النمسا منذ عهد ضم النمسا إلى ألمانيا قبيل الحرب ولم يكن لها ولد وهي تعتبرني مثل ابنتها فرأيت أن أقصد إليها حتى يحدث الله بعد ذلك أمراً .

المعروف عن سالزبورغ ثلاثة : الأول أنها بلد الملحن العبقري موزارت وهو في نظر أهلها أعجوبة الدهر ، والثاني أن فيها مائة كنيسة وكنيسة تذكر بأمجاد البلد لقرنين اثنين خليا حين كان يحكمها أساقفة الكنيسة ، والثالث أن السحب تغشى سمائها فتمطر ثلاثمائة يوماً في العام !

حاولت التسرية عن نفسي بزيارة الكنائس وأكثرها من فن الباروك الرائع وبارتياد الحفلات الموسيقية تعزف فيها جوقات عالمية الشهرة تحج إلى سالزبورغ ، فلم يكن من كبير جدوى وقد كانت هواجسي فوق زخرفة بناء الكنائس وفوق شجي ألحان الجوقات ، زاد في هذا الجو الغائم الممطر .

كان همي في صباح كل يوم أن أترقب قدوم ساعي البريد : هل يحمل لي مغلفاً عليه طوابع اسبانية ؟

* * * * *

ما غابت أوضاعي هذه عن عمتي فقد كانت تلحظ سوء حالي وتعرف ما ورائه وتتظاهر بتجاهل الأمر مراعاة لشعوري ، حتى طفح الكأس فاتجهت إليّ تقول :

— حبيبتي هيلدا ! آن لنا أن نضع حداً لما أنت فيه من قلق وغم تعيشين معهما في الأوهام . وما أريد أن أحكم على من لم أعرفه ولكن أرجح أن صاحبك السنيور بدرو غير جاد ولا قاصد ما تذهبين إليه . إن أبناء إسبانيا هؤلاء مشبوبو العاطفة موزعو القلب وليس وراء هذا ما يركن إليه . إنهم مولعون بالغزل للغزل . ويعمدون إلى تصيد الحسان للتصيد ، هواية مثل هواية مصارعة الثيران ، برعوا فيها وهي أقل خطراً وأجزى هدفاً ، ثم إن أعراف

المجتمع الإسباني أقرب إلى الشرق منها إلى الغرب وما زالت تسوده تقاليد قديمة فدعيني أصارحك ياحبيبتي : إن السنيور بدرو لن يقدم على الزواج من إمرأة غريبة هي أرملة أولاً ومطلقة ثانياً وأم لشابين تجاوزا العشرين ثالثاً .

وانهارت دموعي فأخذتني عمتي بين ذراعيها ... كنت أستمع إلى عمتي فيدرك عقلي أنها على صواب فيما تدليه ولكن يأبى قلبي أن ينصاع إليه . قد أكون في دنيا من الأوهام ، كما قالت ، ولكن ليس لي بديل عنها ، أو ليست حياة الأوهام خيراً من حياة الفراغ ؟

* * * * *

وفي ظهر يوم أقبلت عليّ عمتي وهي في حال ظاهر من التأثر ترتجف يداها حول مغلف عرفت عليه خط زوجي السابق هانز وأخرجت منه قصاصة صحفية عرفت مصدرها على الفور : ذلك أن السنيور بدور منذ غادرنا أخذ يرسل إلينا إلى برلين من قبيل الاطلاع النشرة الصحفية التي تصدرها السفارة الإسبانية في بون فلما انتقل إلى مدريد تابعت مكاتب السفارة إرسالها تلقائياً ، والظاهر أن هانز وجد في أحد النشرات ما يهمني و لم يرد أن يباغتني به فأرسل القصاصة عن طريق عمتي احتياطاً وترفقاً . نزعت القصاصة من يدي عمتي فإذا فيها :

« أعلنت في مدريد خطوبة السنيور بدرو رونيز دالكانتارس ، المستشار الصحفي السابق في هذه السفارة ، على الآنسة غارسياماريا سوزدليروس ، ويسعد السفارة أن تتقدم إليهما بخير التهاني والتمنيات » .

كانت طعنة في الصميم أفقت معها على الواقع .. حتى دنيا الأوهام ذهبت من يديّ !

* * * * *

الدكتور ديتريش شوارزباخ طبيب وأستاذ جامعي نشأ في مطلع هذا القرن في مقاطعة الألزاس تنازعتها فرنسا وألمانيا مداً وجزراً في ثلاثة حروب خلال سبعين عاماً وتبدلت جنسيته من جرائها بين افرنسية وألمانية أربع مرات . ثارت نفس هذا الرجل على توالي الحروب والقتل والتدمير وعافت زيف مدنية الغرب فغادر أوروبا إلى أفريقيا وأقام مستوصفاً طبيباً متواضعاً في قرية « يابابولولو » في الكاميرون ، وكانت مستعمرة ألمانية إذ ذاك ، لمعالجة الأطفال المصابين بالأمراض المستعصية ، وذاع خبر هذا المستوصف بعد أن زاره أديب عالمي كبير كتب عنه مقالاً في مجلة واسعة الانتشار فتوالت على المستوصف التبرعات فلما قضى

الدكتور شوارزباخ أصبح المستوصف مؤسسة معروفة يقصد إليها بعض الأطباء والممرضات من كافة الشعوب للعمل فيها فترة تطول أو تقصر تطوعاً لوجه الله .

سبق أن علمت بأمر المؤسسة حين عملي في مستشفى « سانتاكاتارينا » في برلين بعيد الحرب مباشرة فعادت إلى خاطري وقررت أن أقصد إليها للإقامة والعمل ما بقي لي من الحياة وأن ألقي ورائي في أوروبا ما عانيته ولا سيما فشل الزيجة البيضاء مع هانز وخيبة سراب الحب مع السنيور بدرو . قمت بالاتصالات والإجراءات فاستغرقت حوالي أربعة أشهر فما كان القائمون على المؤسسة يقبلون لديهم إلا من يثقون بصدق عزمه وإخلاص نواياه لا تدفعه نزعة عابرة ، وقد شفع لي في قبولي شهادة رئيس الأطباء وكبيرة الممرضات في مشفى برلين الذي سبق أن عملت فيه .

* * * * *

وهكذا أقيم في الكاميرون منذ خمس سنين أجهد وزميلاتي للعناية ما وسعنا بالأطفال أواجه حياة جديدة قطعت معها كل الجسور مع الماضي إلا من رسائل يبعث بها ولداي وعمتي . حياة جديدة في عالم وكأنه كوكب آخر ، وللقارة السوداء هذه سحرها وأسرارها . هل شهدت مراسم العبادة على قرع الطبول في أدغالها ؟ هل لحظت بريق النجوم الأخاذ في سمائها ؟ ألفت العيش فيها وأنست إليه . ومن يرض يعش .

وللمرة الأولى أغادر « يابابولولو » رفقة زميلاتي لزيارة بلدك بدعوة من جمعية الهلال الأحمر المغربي .

* * * * *

بهذا ختمت السيدة هيلدا قصة ماضيها . أمسكت بيديها وتأملت في عينيها الخضراوين وفي قسمات وجهها الصبوح ما نالت منها ويلات الحروب والأسى في أوروبا ولا قسوة المناخ والعيش في أفريقيا وقلت :

— خلي عنك قرع الطبول والأدغال . ما خلقت لك ولا خلقتي لها . خمس سنين في ... كيف تلفظين اسم القرية ؟ ... يا با با لالا . ! خمس سنين فيها مع الأطفال كفاية ومزيد . أما تحنين إلى عيش سوي في مجتمع حضاري ؟ أما ترين أن تخصي بعنايتك منذ

اليوم طفلاً كبيراً ... أوليس من العجب أن جمعية الهلال الأحمر المغربي رتبت موعداً للقاءنا أنت القادمة من الكاميرون وأنا القادم من بلاد الشمال في فندق مولاي يوسف هذا ؟

* * * * *

القول السائد في المغرب إن مولاي يوسف له كرامات !

☆ ☆ ☆

عارضة الأزياء في كوستاريكا

صديق العمر طاهر بن سيدي حنون يؤثرني بحكاياه يشفع لي عهد قديم بيننا وأنني أصغي إليه كل الإصغاء ، وقليل من الناس من يصغون . حدثني يوماً قال :

تبدأ القصة في باناما ، وإذا ذكرت باناما خطر للبال قناتها فإنما خلق الأميركان دولة باناما من أجل القناة واقتطعوا أراضيها من شمال كولومبيا في مطلع هذا القرن دولة مستقلة يسيطرون من ورائها على القناة .

والمعروف أن القناة هذه تصل بين المحيطين الأطلسي والهادي ولكن قلما يذكر أنها تفصل بين عالمين متباينين كالليل والنهار : منطقة القناة للأميركان المقيمين فيها والمشرفين عليها ، وما دونها لأهل البلد . في الأولى دارات وحدائق وخيرات ونعيم وكأنها حملت من الأحياء الراقية في فلوريدا وكاليفورنيا ، وفي الثانية بؤس وفقر وتخلف وكأنها قطعة من أفريقيا السوداء يتفرج الشباب فيها على البواخر المارة في القناة من بعيد عاطلين بطالين وسعيد الحظ منهم من يتاح له العمل في خدمة سادة القناة أو التسلل إلى نيويورك ليجد عملاً فيها بالحلال أو بالحرام .

* * * * *

حملت القناة إلى باناما غير قليل مما درج عليه الأميركان في بلادهم ومنه هواية سباق الخيل والرهان عليها وفي الأسبوع الثالث من مطلع كل عام يقام في مدينة باناما مهرجان لسباق الخيل تتبارى فيه خير الجياد محتداً تحملها الطائرات إلى بلد القناة من أقطار تذهب من الأرجنتين وولاية تكساس إلى جزيرة العرب وأوستراليا ، ويمنح فيه الفائزون جوائز مالية بالغة القدر . والسباق الأخير من هذا المهرجان حدث مشهود يقصد إليه هواة الجياد من البلاد المجاورة ويعتبر في العالم الجديد بمقام سباق « الدربي » الشهير في انكلترا .

* * * * *

الواقع أن قاصدي هذا المهرجان لا يقتصرون على هواة الجياد فقد دخل في الأعراف والتقاليد أن يشهد اليوم الأخير من المهرجان علية القوم ونجوم المجتمع في جمهوريات أميركا الوسطى وما حولها من شمال القارة وجنوبها . ثم إن هذا اليوم مسرح كبير للدعاية تعرض

فيه طائفة من الغادات الحسناوات أزياء الموسم الجديد تبعث بهن دور تصميم الأزياء العالمية . وفي الفترات الفاصلة بين سباقين متواليين يتجه الهواة صدقاً وفعلاً ، وهم قلة ، إلى حظائر الجياد يتفرسون فيها ويتحدثون إلى فرسانها ليختاروا من ثم جواد الرهان ، ولكن الكثرة الغالبة من الجمهور يسعون إلى ساحة خضراء تختال على عشبها الكواعب العارضات يعبثن ويختلن في خطوات وتثني وانعطاف كلهن دلال .

هذا وإن بين بنات حواء والجياد تزاحماً قديم العهد فقد كان القول السائد إن خير ما يملكه الرجل في حياته اثنان هما المرأة والجواد . وفي أيام الفروسية من القرون الوسطى ذهب بعض الغلاة إلى حد التساؤل أيهما أقرب مودة إلى الرجل المرأة أم الجواد ؟

* * * * *

كنت في مهمة في المكسيك فغادرتها إلى باناما لأشهد أسبوع السباق رغم ما كنت أتوقعه في باناما من وطأة المناخ الاستوائي الثقيل في حره ورطوبته فلا يرد أن يفوتني هذا المهرجان ونحن ، أبناء المغرب ، جرى حب الجياد في دمائنا ودرجنا على الفروسية منذ الطفولة ويشهد العارفون أن فرسان المغرب هم من خيرة الفرسان على وجه الأرض إن لم يكونوا خيرهم .

قصدت باناما وما كنت لأطلع على الغيب لأعلم أن بنت حواء ستنتصر على الجواد . قد تتحرر المرأة من سطوة الرجل ، وهي جادة في هذا السبيل ولكن لن يتحرر الرجل من إغراء المرأة ولا هو راغب في هذا التحرر .

في الفترة الفاصلة بين سباقين انتقلت فجأة وكلياً دون قصد ولا خيار من عالم الجياد إلى عالم المرأة عوداً إلى عهد بعيد في الزمان والمكان فقد لقيت وجهاً لوجه امرأة كانت طيف أحلامي في أيام الفتوة في المغرب لحوالي ثلاثين سنة خلت : وجدتني قبالة امرأة كأنها الممثلة العالمية « ريتا هيوارث » بالذات .

* * * * *

ولست من هواة السينما وما حفظت من أسماء نجومها إلا القليل ولكن بدا لي في مطلع الشباب أن ريتا هيوارث نجم هيوليوود الساطع في قامتها الممشوقة وسماتها الجذابة وأنوثتها الصارخة من أجمل من خلق الله فصارت في نظري ، وأنا في عهد الفتوة إذ ذاك ، المرأة المثلى .

والظريف أنه شاركني في ذوقي هذا في اختيار ريتا هيوارث أمير شرقي ذو زعامة دينية وسلطان وثراء كان جده يتلقى كهدية من أتباعه في الشرق الأوسط وزنه من أحجار الماس . ولم يقتصر الأمير على إيثار هيوارث بالخاطر ومن بعيد كما فعلت ، بل تزوجها وأنجبا البنات ، وما فاز باللذة إلا الجسور !

واليوم وقد مضت عقود من السنين علي عهد الفتوة وأحلامها وانتقلت ريتا هيوارث إلى عالم الفناء وصارت في دنيانا نسياً منسياً عادت إلى خاطري ذكراها من أعماق العقل الباطن ، وفي أعماق العقل الباطن هذه أسرار تاه علماء النفس في ظلماتها لا يهتدون سبيلاً .

* * * * *

عوداً إلى سباق الخيل طلعت عليّ في الساحة الخضراء شبيهة ريتا هيوارث في القامة والسمات والأنوثة وعلى رأسها قبعة كبيرة سوداء تزينها وردة بيضاء تحمي من أشعة الشمس وجهها الصبوح . وجدتني أعيش قبالتها عالم الفتوة العتيد .

كان هذا الحلم قصير الأمد وسرعان ما أفقت على الواقع فقد شهدت بعد العرض هذه السيدة تتأبط ذراع رجل وسيم أنيق من الواضح أنه زوجها ، ولا شأن لي بالمتزوجات ولو كن حوريات الجنة . مبدأ تمسكت به دوماً فللزوجة عصمتها وللزيجة قدسيتها ، وللمتدخل فيها مشاكل وعواقب خير الابتعاد عنها .

عدت إلى عالم الجواد أغص بريقي .

* * * * *

من تقاليد أسبوع السباق إقامة حفلة ساهرة راقصة في الليلة الأخيرة في فندق « المحيطين » هي حجر العقد في المهرجان تستمر فيها المباهج والمباذل حتى مطلع الفجر وهي بيت القصيد للسيدات للظهور بأحلى زينة وثياب ومجوهرات .

حضرت هذا الحفل بالطبع السيدة شبيهة « ريتا هيوارث » وكان الحديث السائد يدور حول جائزة السباق الكبرى ذهبت إلى ثري كبير من ولاية تكساس ، والمال يجر المال ، ولكن كان شاغلي تلك السيدة وقد جلست حول مائدة قريبة مني رفقة زوجها وجماعة من الأصحاب . لم أكن أبغي شيئاً تمسكاً بمبدأ احترام الزيجة وتسليماً بالواقع ولكن كانت عيناي تتجهان نحوها تلقائياً دون قصد مني .

تبادلنا النظرات في حلبة الرقص . نظرات تعني كل شيء ولا شيء . أترى هل في نظراتها إشفاق على العاشق الصامت الصابر ؟ أو عزاء ودلال ؟ ما أدري . كل ما أدري أنه يحلو للحسان إثارة إعجاب الرجل والعبث بقلبه لوجه الشيطان ثم يدعنه يتقلب عطشان جائعاً .

* * * * *

في اليوم التالي كنت في بهو الفندق أتأهب لمغادرته وقد انتهى المهرجان فإذا بي ألقى عند مكتب الاستقبال صديقاً عرفته في البرازيل يدعى « كوستي بورتاكولوس » وهو الممثل العام لشركات بواخر النقل اليونانية في أميركا اللاتينية ينتقل بين مكاتبه العديدة في مرافىء القارة من الشيلي جنوباً إلى المكسيك شمالاً . كانت ترافقه زوجه السيدة « روزينا » وهي تحفة بين النساء تستحق التعريف .

السيدة روزينا ترافق زوجها في كل رحلاته وتنقلاته لا تحلّ عنه رغم أنه تقدم بهما العمر . هوايتها القيل والقال والتدخل في شؤون بنات جنسها فيما يعنيها وما لا يعنيها ، والإطلاع على أخبار المجتمع في كل بلد تحل فيه حتى لا تخفى عليها شاردة ولا واردة كل هذا في ظرف ولطف لمن يودها ويتقرب إليها ، وفي لسان كحد السيف لمن يعرض عنها أو يتجاهلها ، حتى درجت السيدات على مسايرتها وابتغاء رضاها . كان القول السائد : لها في كل عرس قرص ولزوجها في كل مرفأ مكتب .

* * * * *

اتجهت إليّ السيدة روزينا وبادرتني القول :

ــ كيف قضيت ليلتك ؟ ظل بالي مشغولاً عندك

ــ خيراً ! شكراً . ولم انشغال البال ؟

ــ لا تحاول التجاهل . ما يخفى عليّ شيء ... شهدتك طوال السهرة وعيناك شاخصتان إلى دولشينا ! ولِمَ ظللت مأخوذاً من بعيد ولم تدعها إلى الرقص ؟

ــ دولشينا ؟ مالي ولهذه السيدة فلها زوجها يتولى أمرها وفيه الكفاية .

ــ إنك تزيدني عجباً ! أما تعرف حكايتها وهي شائعة منذ سنين ؟ إنهما متزوجان في الظاهر وشكلاً أمام أعين الناس ويسكنان تحت سقف واحد ولكنهما في الواقع يعيشان كالأخ والأخت من أجل فرنسيسكا ...

وأقبل زوج محدثتي كوستي بورتاكولوس يدفعها ، وهو عارف بثرثرتها فقد كانت السيارة تنتظر لتنقلهما إلى المطار .

* * * * *

أخذت أتساءل : متزوجان ويعيشان كالأخ والأخت ؟ ومن هي فرنسيسكا ؟

التبس الأمر عليّ وليتني قصدت السيدة روزينا من قبل لترشدني وهي دائرة معارف في دنيا النساء ، وليتني دعوت دولشينا إلى الرقص ، لقد تقاعست وفرطت .

ثم عدت إلى نفسي وذكرت أن الندامة نفعها قليل إذا ما الشيء ولّى وأدبر وأن الخيرة في الواقع وأنني في غنى عن مغامرة جديدة ما أدري ما ورائها .

* * * * *

بعد حوالي أربعة شهور قصدت إلى سان خوزة عاصمة جمهورية كوستاريكا من أميركا الوسطى للمشاركة في حفل تنصيب رئيس الدولة الجديد السينيور « كلاديو مارتيغنر » ، ومن الأعراف القائمة في أميركا اللاتينية أن يحضر حفل تنصيب الرئيس الجديد موفدو دول العالم ترافقهم عقيلاتهم وأن تقام سلسلة من المآدب والليالي الساهرة تتبادل فيها الخطب والأوسمة والهدايا فضلاً عن العرض العسكري والمسيرات الشعبية ومشاهد الفنون الفولكلورية وما إلى ذلك ، وكأن الرئيس الجديد هو العريس وكأن الدولة هي العروس ينعم المواطنون والضيوف طوال أسبوع العرس بالأفراح والليالي الملاح .

وكوستاريكا بلد يطيب المقام فيه وهي اللؤلؤة الفريدة في عقد دول أميركا الوسطى وشتان ما بينها وبين جاراتها فعاصمتها سان خوزة تبعد نصف ساعة بالطائرة عن مدينة باناما ولكنهما عالمان متفاوتان : في باناما ، كما ذكرت لك في مطلع هذه القصة ، البؤس والتخلف والحرمان وفي كوستاريكا ينعم أهلها بسوية رفيعة من العيش والوعي والثقافة ومناخ كأنها قطعة من حوض البحر الأبيض المتوسط ، وهي الوحيدة في القارة كلها ما جندت جيشاً فما عرفت انقلاباً .

* * * * *

عدت إلى الفندق في سان خوزة عصر يوم فناولني موظف الاستقبال مع المفتاح رقعة يبدو أنها وجهت إلى كل نزلاء الفندق فيها دعوة لحضور حفل لعرض أزياء الموسم القادم

تقيمه محلات « جينو جينولي » في قاعة « بوليفار » من الفندق . ما سبق لي أن سمعت باسم جينو هذا ولكن تدل البطاقة على أن له فروعاً في كثير من المدن الكبرى تذهب من ميلانو وباريز إلى نيويورك وبونس آيرس .

لا أكتم أنني أحب حضور عرض الأزياء ما أتاح لي الوقت : جلسة وثيرة وموسيقا ناعمة وشكل حسن ، ولو أنه ليس لي في عالم أزياء السيدات لا ناقة ولا جمل .

وأضيف أنه يحلو لي خلال العرض نوع من الهواية . إذ أحاول ما استطعت أن أجد المصدر الذي أوحى إلى الفنان مصمم الزي ما عمد إليه : هذا البنطال شبيه بما تلبسه بنات الريف في تايلاند ، وهذه القبعة يلبس مثلها الهنود الحمر في بوليفيا ، وهذا الزنار مقتبس من كسوة الفرعون توت عنخ آمون كما وجدت في أهرامه ...

الطريف أن أحدث ما تطلع به بيوتات تصميم الأزياء على سيدات المجتمع الراقي المترف يرجع أصله في الغالب إلى ما هو دارج معهود في ريف فقير أو ما هو قديم قابع في متحف ! .

* * * * * .

كانت قاعة « بوليفار » من الفندق مكتظة بالسيدات حتى ظل الرجال ، وهم قلة وقوفاً . لحظت في هذا العرض أسلوباً جديداً غير مألوف فلم تكن عارضات الأزياء من الفتيات الناشئات المشوقات في تثني غصن البان بل كن ممن تجاوزن ربيع العمر واكتنزت أجسامهن بعض الشيء .

عجبت لهذه الظاهرة حتى أوضح لي مدير الاستقبال في الفندق ما ترمي إليه قال : إن عرض الأزياء ليس هدفاً بذاته وإنما هو وسيلة لبيع الثياب وتسويقها . والمعروف أن القادرات على شراء هذه الأزياء ، وهي غالية الثمن ، هن زوجات الأثرياء وأراملهم ممن تقدم بهن العمر ، وخلف رخاء العيش فيهن بعض البدانة والترهل ، فإذا شهدن الفتيات المشوقات يخطرن بالأزياء المعروضة قلن إنها لا تصلح لهن وبرمن وأحجمن عن الشراء ، أما إذا شهدنها على من هن أقرب إليهن بالعمر وبالمواصفات الجسمية استبشرن وأقبلن على الشراء .

الظاهر أن السنيور جينو جينولي لا تقتصر براعته على كسوة النساء بل تذهب إلى ما يدور في نفوسهن !

* * * * *

عوداً إلى قاعة « بوليفار » انقضت الفترة الأولى في عرض الأزياء الخاصة بحفلات الكوكتيل ومشاغل النهار وترقب الجمع الفترة التالية الأثيرة لعرض أزياء السهرة ومباهج الليل فسلطت الأنوار الوادعة على سدة العرض والممرات إليه وانطلقت الألحان الموسيقية الناعمة وأقبلت العارضات يجررن الذيول ولعل الطاووس أحرى بأن يأخذ عنهن دروساً في التيه والدلال .

كنت أتمتع بدنيا العرض هذه خالي البال وإذا بي أرى فجأة « دولشينا » شبيهة ريتا هيوارث بين العارضات . تثبتت عيناي عليها . كانت رائعة بل فاتنة . ارتدت ثوباً من الحرير الأزرق اللازوردي انحسر في الصدر حتى مفرق الثديين وتدلى في الذيل حتى غطى القدمين يشده إلى وسطها زنار فضي عريض زين بأحجار براقة في حمرة الجمر ، وفي الجانب الأيسر عند مستوى الركبة جاء في الثوب شق طويل يكشف عن معظم الساق بين خطوة وأخرى .

كانت زينة العارضات وكأن مصمم ثوبها أراده صورة فنية لروعة الليل في زرقته ونجوم درب التبان في وسطها من الزنار الفضي أضاف إليه عشرا من الجمر تمثل كوكب المريخ اللاهب .

عادت إلي ذكرى ريتا هيوارث حبيبة عهد الفتوة تلاحقني من باناما إلى سان خوزة فعزمت على أن لا أتقاعس هذه المرة ولا أفرط ولن يسبقني إلى شبيهتها أمير شرقي ولا غربي .

* * * * *

دعينا عقب العرض إلى حفل استقبال بسيط كانت العارضات هن المضيفات فيه ، وأقبلت « دولشينا » تحمل صينية فيها بعض المقبلات الإيطالية ، تقابلنا وجهاً لوجه فعرفتني ، وليس من العجب أن تذكر ملامح ابن المغرب لا يراها القوم كل يوم في سكان أميركا اللاتينية .

تعارفنا واسمها « دولشينا لور انجا بايرسول » ولدت في الباراغواي في أسرة ترجع أصولها إلى الرواد الإسبان الأوائل من مقاطعة « اكسترا مادورا » في جنوب غربي اسبانيا ، وزوجها « كارلوس » وكيل شركة سيارات « كرايزلر » في أميركا اللاتينية ، وهما يقيمان في كراكاس عاصمة فنزويلا ، ولو أن كارلوس منهمك في التجوال على وكالاته في طول القارة وعرضها .

رويت لها قصة ريتا هيوارث فضحكت ثم قالت في شيء من الأسى :

ــ الحق أن كثيراً من أصحابي لحظوا الشبه بيني وبين ريتا هيوارث ولكنه شبه يقتصر

على الظاهر فما لمع نجمي وما لي من حياة النجوم نصيب .

ولما أشرت إلى أن السيدة روزينا بورتا كولوس حدثتني عنها انفعلت قائلة :

— هذه الحية الرقطاء لا أطيقها . لسان طويل وفضول لا حد له ما أدري ما لفقته من وراء ظهري عن وضعي العائلي وصلاتي بكارلوس ومن الأفضل أن تسمع مني قصتي على حقيقتها .

* * * * *

حكايتي تتلخص في كلمات قصار : « أحببت وتزوجت من أحببت فإذا بالحب والزواج لا يتعايشان طويلاً . إذا حل الزواج رحل الحب . الزواج استقرار مقيم مكين والحب عاطفة متقدة في نار ولهب فإما أن تطغي رتابة الزواج على نار الحب فتأتي عليها أو أن تحرق نار الحرب رتابة الزواج . لا جمع بين الأمرين . لا تقاطعني ... أعرف أن الكثيرين لا يوافقون على هذا الرأي ولكنني أحدثك عن تجربة واقعية أدفع الآن ثمنها كل يوم . وكل ليلة ...

* * * * *

لقيت كارلوس للمرة الأولى في حفل ساهر في نادي السيارات في « أسانسيون » عاصمة بلادي الباراغواي ، منذ النظرة الأولى وقعنا كلانا في حب جامح عارم ، والمعروف في الأسطورة أن كوبيدوس يطلق سهم الغرام في قلب المحب والواقع أنه أصاب بسهمه قلبين اثنين وحدّ بينهما في قلب واحد يخفق بحبنا ، حب غابت معه الدنيا كلها عنا فلم نعد نرى في الحياة سواه .

وللأقدار عبث عجيب فما سبق لكارلوس أن عرف الباراغواي وليس له فيها مصلحة ولا وكالة فاستيراد السيارات الفاخرة ممنوع في الباراغواي . كان في جولة على وكالاته في الأوروغواي فدعاه أصحابه من نادي السيارات فيها لمرافقتهم إلى الحفل في الباراغواي . فاستجاب من قبيل المسايرة ليقضي فيها ليلة ويعود فكان اللقاء .

تم عقد القران بعد أربعة أشهر من هذا اللقاء رغم أن أبي رغب إلينا في التريث بعض الوقت كيما نزداد معرفة واحدنا بالآخر وبعد أسبوع من شهر العسل في ريو دو جانيرو انتقلت إلى كاراكاس وعشنا وكأننا في حلم لذيذ في جنات النعيم .

* * * * *

مضت الأيام وأخذت أفيق من هذا الحلم لأشهد أن جنات النعيم لا وجود لها على وجه الأرض ، وأنه إذا كان الحب ناراً فإن النار ، كما يقولون ، تأكل بعضها إن لم تجد ما تأكله .

تبين لي يوماً بعد يوم أن هنالك فوارق كبيرة في الطباع والميول ونهج العيش تفرق بيننا وأننا تسرعنا والحب أعمى ولعل أبي كان على حق في وجوب التريث .

حاولت مداورة هذه الفوارق والتقريب بينها ما أمكن ولكن تعسر هذا فإنما ترجع هذه الفوارق إلى تباين عميق بيننا في المنشأ والوسط والبلد : كارلوس من أصل إيطالي نشأ على الدعة والانطلاق وهو الابن الوحيد في أسرة تجارية غنية في فنزويلا ، وفنزويلا بلد متحرر يسبح فوق ثروات البترول وأبوابه مفتوحة على البحار والعالم ، وأنا من أصل إسباني نشأت وثلاث أخوات لي في أسرة محافظة متدينة محدودة الموارد عمل أبناؤها في الكنيسة أو الجامعة في الباراغواي ، والباراغواي بلد محروم فقير مقيد الحريات موصد الأبواب في شبه عزلة عن جيرانه والعالم . كل هذه العوامل أدت إلى فوارق بالغة لا سبيل للتقريب بينها وإنما تخطاها الحب ، والحب وحده ، في اندفاعه وضرامه ، ومن ثم أفقنا عليها .

* * * * *

صبرت على هذه الفوارق أجابهها مع كارلوس في كل يوم وفرحت لما رزقنا بنتاً دعوتها فرنسيسكا باسم والدتي وقد فقدتها قبل سنتين وهي بعيدة عني في الباراغواي . والمعروف أن إنجاب الأولاد يوثق الروابط بين الزوجين ويبعث في الأسرة روحاً طيبة جديدة فلما كبرت فرنسيسكا انقلب الأمر وظهر الخلاف بين كارلوس وبيني واضحاً جلياً .

كان هم كارلوس أن تكون فرنسيسكا موضع الإعجاب والثناء ومحط الأنظار في زينتها وأزيائها وأن تحتل مكانة مرموقة في وسط الجيل الجديد في المجتمع الرفيع وأن تغشى نواديه وتعاشر أبناء أصحاب الملايين من أثرياء البترول المحدثين . وما كان هذا الاتجاه وكله زخرف وغرور ليطيب لي فقد كان جل قصدي أن تكون فرنسيسكا زوجة صالحة وأما واعية . وشعرت فرنسيسكا بهذه المشادة في توجيهها فكانت تميل إلى أبيها وكادت تعرض عني .

زاد على هذا أن كارلوس كان يغيب في جولاته على وكالات السيارات فكنت أبقى لوحدي أحاول أن أمسك بفرنسيسكا وأصرفها عما درجت عليه مع أبيها حتى إذا عاد من رحلاته أقام طائفة من المآدب والحفلات على حساب شركة « كرايزلر » من قبيل توثيق الصلات العامة ، ويرغب إلي في أن أكون المضيفة الجذابة في خير زينة ومظهر لمؤانسة

الضيوف فأشعر كأنني وسيلة للدعاية . كان هذا يحز في نفسي فلا أطيق أن يقحم الرجل زوجته في دنيا أعماله لغرض لا في قليل ولا في كثير .

* * * * *

تأزم الخلاف حول فرنسيسكا وتوترت الصلات مع كارلوس وبعد تفكير عزمت على الطلاق كيما أحتفظ بالبنت لوحدي ، ولكنني عمدت إلى استشارة أبي فكتبت إليه وكان جوابه أنه يكره الطلاق وليس له سابقة في أسرتنا وأن فرنسيسكا ستكون الضحية فللنزاع بين الوالدين الأثر السيء البعيد المدى في نشأة البنت ومستقبلها ، وهو يرى أن أتريث في الطلاق حتى تجد فرنسيسكا رفيق حياتها وتغادر المنزل ، وإلى أن يتيسر هذا نظل كارلوس وأنا في رباط الزوجية أمام أعين الناس ونعيش وفرنسيسكا تحت سقف واحد كجارين ملزمين بالتجاور إلى حين .

* * * * *

منذ ثلاث سنوات وأنا في هذه الحالة الغريبة : لا زوجة سوية ولا طليقة حرة ، أو كما يقولون لا مطلقة ولا معلقة . في نظر الناس كارلوس محسوب علي ولكنني في الواقع وحيدة .

— وحيدة ! ما رأيتك وحيدة ! في باناما كنت وسط جمع من الأصحاب ترقصين طوال الليل ، وهنا في سان خوزة وسط العارضات والمعجبين .

— قد يكون المرء وسط معشر من الناس وهو في الخاطر والروح والقلب وحيد ، وقد تملأ أوقاته مشاغل كثيرة وتظل حياته فارغة . أما ممارستي عرض الأزياء فما كان يخطر لي في بال وما أظن أبي يرضى عنه لو علم به . ولكن الأمر جاء رمية من غير رام ، اسمع .

* * * * *

قصدت يوماً محلات جينو جينولي في كاراكاس للتفرج على مجموعة من القبعات التي أعلن عنها وأخذت أقلب فيها وأجرب بعضها وأنا واقفة بين مرآتين كبيرتين متقابلتين والظاهر أن مدير المحل ، وهو يعرفني ويعرف زوجي ، كان يراقبني ويتأمل بي ، وإذا به يقبل عليّ ويقول :

— إنك يا سيدتي موهوبة حقاً ! إننا نجهد في تدريب الفتيات أشهراً طويلة على عرض

الأزياء فلا ينجح منهن إلا قليل ، وأشهد أنك عارضة أزياء بالفطرة وبالغريزة ، هل يروق لسيدتي أن تكرس بضعة أيام في الشهر للمشاركة في عرض أزياء محلاتنا ؟

— ما أظنك جاداً ! لقد تجاوزت عمر العارضات و لم يعد لي قوامهن ثم هل يرد أن تكون قرينة السنيور لورانجا بايرسول عارضة أزياء ؟

— ماعليك بأس فقد عمد السنيور جينولي مؤخراً إلى نهج جديد في اختيار العارضات فقد صرف الفتيات الناشئات الناحلات وعمد إلى سيدات في أواسط العمر ذوات أجسام سوية مليئة ، ثم أن العرض الذي قد تشاركين فيه لن يكون في كاراكاس معاذ الله ، وإنما في مدن بعيدة في طول القارة وعرضها لا يعرفك فيها أحد . لا ترفضي على الفور ، أرجوك التفكير في اقتراحي وأضيف من قبيل الاطلاع : الرحلات بالطائرة في الدرجة الأولى ، والمقام في فنادق من طبقة خمس نجمات ، خمسة وعشرون دولار لكل ساعة عرض ، هدايا بين الحين والحين ، وأخيراً لا آخراً خصم ثلاثين بالمائة على كل ما تشتريه من محلاتنا ...

بعد أسبوعين كنت مع جماعة جينو جينولي في الطائرة قاصدين المكسيك لعرض الأزياء فيها وفي جنوب كاليفورنيا . وتوالت الرحلات بين الحين والحين وآخرها كما رأيت هنا في سان خوزة بمناسبة تنصيب السيد الرئيس الجديد .

* * * * *

توقفت « دولشينا » فترة في حديثها وبدت كأنها محرجة برمة لا تستسيغ ما هي فيه ثم تابعت تقول :

— هذه الرحلات ومشاغل أخرى أقتل بها الوقت تجاهلاً لما أنا فيه من وضع غريب ولكنها لا تلهيني عن هدفي الرئيسي هو زواج فرنسيسكا وانعتاقي من بعده وتحقيق حلم قديم لي في زيارة إسبانيا موطن أجدادي وطالما وعدني كارلوس بهذه الزيارة فكانت مشاغله طاغية و لم تتح لي . وإني لأرقب يوم الخلاص هذا تدخل فيه ابنتي بيت الزوجية وأجد فيه حريتي .

— وإني لأرقب معك هذا اليوم ... وظني أنه غير بعيد وما سبق لي أن رأيت فرنسيسكا والغالب أن البنت على مثال أمها فإذا كان لها من جمالك نصيب فالأكيد أن كثيرين من الشبان يحومون حولها .

ــ الشبان الذين يحومون حولها أكثر من الهم على القلب ولكن فتش عمن يصلح زوجاً منهم !

ثم إن فرنسيسكا ليست بالهينة في اختيار رفيق حياتها ولا بالمستعجلة ، فهي لا تدري ما تعاني أمها من أجلها . تصور أنني أغالب كبريائي وأتظاهر بالتودد إلى صاحبتك السيدة روزينا اليونانية فهي ذات صلات واسعة في المجتمع ومن أعز هواياتها علـيها ، وهوياتها الفضولية كثيرة ، من أعزها التوسط في أمر الزواج .

* * * * *

وهنا خطر لي خاطر فقلت بين الدعابة والجد :

ــ مالك ولروزينا ولنساء اليونان جميعاً ! عندي وسيلة أفضل بكثير ! في ضاحية من مدينة فاس في المغرب يقوم ضريح لولية صالحة تدعى « مولاتي حفيظة » يقصده الناس من كل فج عميق ويتقدمون إليها بالشموع والنذور فالاعتقاد السائد أنها تشفع للبنات بتسيير زواجهن .

ــ هنيئاً لهم باعتقادهم . ما فيه بأس . بل فيه باب للأمل المرجى . وبودي لو أقصد إليها لو استطعت . هلا كتبت إلى أحد أصحابك لينوب عني بتقدم شمعة كبيرة ؟.

لا حاجة بي إلى الكتابة ، سأعود في القريب إلى المغرب فأتقدم إليها بشاة من أجل فرنسيسكا .

وضحكنا وانحسرت عنها غشاوة الأسى التي كانت تساورها .

* * * * *

غادرت أميركا الوسطى وقد انتهت مهامي فيها عوداً إلى المغرب وعمدنا إلى التراسل . وفي رسائلها الأخيرة ذكرت لي أن الفرج يبدو قريباً فقد مالت فرنسيسكا إلى رفيق لها في نادي السباحة وهو طالب في كلية الطب ومن أسرة مرموقة يدعى أنطونيو وقد يصلح زوجاً لها ، وسألتني هل قمت بوعدي حول تقديم الشاة لضريح الولية الصالحة .

وفي ذات يوم أجد في بريدي مغلفاً كبيراً ناصع البياض مذهب الأطراف فيه رقعة دعوة جاء فيها :

كارلوس لارانجابايرسول.وقرينته الدكتور كلاديوسانتابيلم وقرينته
يتشرفون بدعوتكم للمشاركة في حفل قران ولديهما :
فرنسيسكا و انطونيو

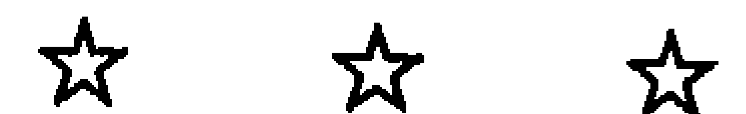
وذلك في ...

أخذت أعيد تلاوة الرقعة وأفكر فيما وراء سطورها ، وهنا عبث الأقدار ، أولاً وأخيراً :
أهي دعوة لفرح زواج البنت أو إعلام وبشرى بقرب طلاق الأم المرتقب ؟

* * * * *

كانت الدعوة من قبيل المجاملة فقد كان مضى على الحفل أسبوعان حين وصلتني الدعوة ، وإنما كان بيت القصيد ما أضيف في ذيل الرقعة بخط يد دولشينا الناعم الذي عهدته .

« مع شكري واحترامي لمولاتك حفيظة . سأكتب إليك في القريب حول مشروع رحلتي إلى إسبانيا ومنها إلى المغرب ... لنتبارك بزيارة ضريحها » .



لعب الأطفال في كوبنهاغن

صديق العمر طاهر بن سيدي حنون يحتفظ لنفسه بذكريات حياته فهي لديه تراث الماضي الغالي وهو عليه حريص ، وأعتز أنه آثرني ببعضها . حدثني يوماً قال :

« نجم الشمال » اسم متجر كبير معروف في كوبنهاغن ، والمتاجر الكبرى معارض ناطقة بما بلغ إليه مجتمع الاستهلاك في هذا العصر . اطلب تعط . تميز هذا المتجر بأن عمره أربى على مائة وخمس وعشرين سنة ، وفي مدخله الرئيسي لوحة كتب عليها شعاره : « سواء قصدتنا من أجل إبرة وخيط أو من أجل معطف من الفراء فإنك تلقى الحفاوة كلها » . وأهل الدانمرك أبرع شعوب الشمال في دنيا الأعمال وأذكاهم حيلة .

زاد في الإقبال على هذا المتجر أن البائعات فيه مختارات من أجمل بنات الدانمرك . وفي نساء الدانمرك أثر من حر الجنوب وتوقد بناته تحسدهن عليه أخواتهن في بلاد الشمال ، ولا عجب في أن يقصد إلى هذا المتجر الكثيرون احتاجوا إلى إبرة وخيط أو إلى معطف من الفرو أو لم يحتاجوا . كلما وجدت في كوبنهاغن بدا لي أن هنالك حاجات يتوجب عليّ ابتياعها من « نجم الشمال » .

* * * * *

واتفق أن كنت في العاصمة الدانمركية فترة أعياد الميلاد ومقدم العام الجديد ، و « نجم الشمال » في أبهى حلله يشع زينة ونوراً وتضيق رحابه بالناس يقصده الكثيرون للفرجة والتسلية وإذا بهم يشترون مالا يحتسبون .

ومن عادتي في مثل هذه الفترة من العام حين أجول في المتاجر الكبرى أن أتوجه إلى ركن لعب الأطفال . والواقع أن لعب الأطفال في هذه الأيام لا تقتصر على ما عهدنا في الماضي من لعب ساذجة هي في سوية الأطفال ومداركهم وإنما تعرض نماذج مصغرة لأحدث ما أخرجته الصناعات الميكانيكية الدقيقة والالكترونية من القاطرات والسيارات إلى المدرعات والطائرات ، ومن آلات المحاسبة إلى مراكب الفضاء . وهذه النماذج المصغرة هي طبق الأصل تماماً وهكذا يشهد المرء في ركن لعب الأطفال غواصة ذرية أميركية وطائرة روسية مقاتلة ميغ ٢٣ ، وسفينة أبولو للفضاء وقاطرة حديدية افرنسية تبلغ سرعتها القصوى ضعف سرعة

السيارة ونصف سرعة الطائرة ...

وكثيراً ما يحوم الآباء والأجداد حول لعب الأطفال يجدون فيها متعة وفوائد ويعجبون لما ستطلع به الأيام على الجيل الجديد !

* * * * *

كنت أتأمل في هذه اللعب المعروضة في متجر « نجم الشمال » وإذا بي أنصرف عنها حين وقعت عيناي على البائعة المشرفة على الركن ، هي في جمالها وقوامها وسحر عينيها نموذج حيّ للعبة المثلى التي يهواها الراشدون !

لفظت نظري فيها شعر أحمر يتموج على رأسها ويكاد يشتعل لهيباً . أقبلت عليّ بابتسامة جذابة تعرض مساعدتها لاختيار اللعبة . ولحظت حرجي وترددي فسألتني هل اللعبة لطفل أم لطفلة وما عمره أو ما عمرها ؟ وازددت حرجاً وقلت من قبيل الخلاص إنها لطفلة في ... عمر ابنتك ... ثم استدركت فقلت إنها في عمر أختك الصغرى ! .

وضحكنا وتعارفنا وتواعدنا على اللقاء .

* * * * *

اسمها « صونيا غروند هال » وهي نروجية الأصل نشأت في قرية « ميندي » قرب مدينة « برغن » في أقصى الغرب من النروج والظريف أن قرية « ميندي » هذه هي موطن المؤلف الموسيقي الشهير « ادوار كريغ » وأن الدارة التي عاش فيها صارت متحفاً تذكارياً من المعالم التي يقصد إليها السائحون . وقد سبق لي أن زرت هذه الدارة وهي في إطار من الطبيعة خلاب يتداخل فيه الغاب والصخر وجداول الماء ، وكنا إذ ذاك في موسم الصيف فبدا الموقع بالغ الروعة وقلت في نفسي لا عجب أن تتفتح عبقرية « كريغ » في هذا المقر أوحى إليه موسيقاه الكلاسيكية الخالدة .

* * * * *

رويت هذا لصونيا وأضفت أنه كلما سمعت قطعة موسيقية من تأليف الموسيقار النروجي ذكرت « ميندي » ودارتها فانشرح صدرها واعتزت وقام بيننا ، نحن الغريبين عن ديارنا ، مودة توالى معها مع الأيام لقاؤنا .

لحظت أنها تتردد في ظهيرة كل يوم خلال فترة الراحة من العمل على حديقة للأطفال

قريبة من متجر « نجم الشمال » ترعي فيها طفلاً تدعوه « أولاف » وكأنه ابنها . ما حدثتني عنه ولا عرفت لها زوجاً ولا صديقاً ، ولم أعمد إلى إحراجها في السؤال ولكنها أدركت ما يساورني فبادرتني القول يوماً :

إنه ابني ، ابني الشرعي ولد وأبوه في المعتقل خلال الحرب الأخيرة فما عرف أباه ولا رآه وقد قضى في المعتقل . لولا هذا الطفل لقصدت إلى بلد بعيد بعيد عن هذه الربوع ولكنني رعاية لنشأته لجأت إلى الدانمرك وعملت فيها . والولد زينة الحياة الدنيا و « أولاف » ريحانة قلبي . ولكن الحق أن الطفل قيد في عنق المرأة الوحيدة غاب عنها زوجها . إنه كرة الحديد الثقيلة الموثقة بساق السجين . ورؤية أولاف كل يوم تنسيني الدنيا وما فيها ولكني في الواقع كالطائر قص جناحاه يدب على الأرض وعيناه تشخصان إلى السماء لا يجد إلى التحليق سبيلاً . وحين يكبر « أولاف » ويطير بجناحيه يكون قد تقدم بي العمر وفاتني القطار ، وأجدني قضيت زهرة حياتي في عملي السخيف في هذه المدينة الزائفة ...

وعجبت لقولها هذا وكوبنهاغن معروفة أنها باريز الشمال فأضافت :

« لا تغرنك أنوار كوبنهاغن ومباهجها فليس أمكر من أهلها في جمع المال : برعوا في أساليب التجارة لاستغلال أسواق الشمال ، وعمدوا إلى إقامة الملاهي والمباذل لاستقدام أهل الجنوب ، هلا شهدت متجر « نجم الشمال » ؟ إنه يستثمر البائعات الحسناوات ويجني فاحش الأرباح من وراء الإبرة والخيط ومن وراء معطف الفرو على السواء . تصور أن مدير القسم الذي أعمل فيه ذهبت به الصفاقة إلى أنه قال لي ضاحكاً يوم باشرت عملي : « إن شعرك الأحمر خير ما يصلح كشعار لركن لعب الأطفال » ! كل السبل مسخرة لجمع المال من شعر الرأس فما دونه . ولا عجب في أن الدانمرك ، وهي من أفقر البلاد في مواردها الطبيعية تنعم بمستوى من العيش من أرفع المستويات على وجه الأرض ، ولكن ما لك ولهذه الشؤون فإنما قصدت كوبنهاغن للمتعة والانشراح وأنت في غنى عن حديثي هذا كله .

كانت ناقمة غاضبة ولم أرغب في السؤال عما وراء هذا الموقف ولكنها في جلسات تالية وقد عاد إليها أنسها روت لي قصة حياتها . ما كنت أحسب أن صاحبة هذا الوجه الصبوح لقيت من أعاصير الحياة مالقيت .

* * * * *

لولا صاحبنا « ادوار كريغ » وموسيقاه لما عرف العالم شيئاً عن قريتي « ميندي » ،

في أقصى الشمال الغربي من أوروبا ، وهي قابعة في أحضان غابات الصنوبر ومتوارية في معظم السنة تحت سجف الثلوج في عيشة هنيئة راضية وكأن أهلها ، وهم في عداد سبعة عشر ألفاً ، أسرة كبيرة واحدة .

كان « رودي غروندهال » جاراً لنا ورفيق دراستي ترافقنا ، طوال أعوام ، في طريقنا إلى المدرسة على الدراجة ، وكان منَ الطبيعي أن تنشأ بيننا صلات الود وتنمو مع الأيام . ولا يضيرني القول إننا لم نعرف لواعج الغرام ولا لظى الهيام كما يقولون ، فلا هو كان روميو ولا أنا كنت جولييت ، ونحن أبناء الريف النروجي ، ما عهدنا مثل هذه المسرحيات في الحياة ولا نطمئن إليها ، نشأنا في أحضان الطبيعة الصامتة الصابرة على صقيع الشتاء وطبعت فينا عزمها وصلابتها ، قامت بين رودي وبيني عاطفة صادقة هي في غنى عن الغزل والدلال والإغراء مما حذقته شعوب الجنوب ، فلما انتهت دراستنا في « ميندي » وعزم رودي على متابعة دراسته في « برغن » كنا قد تعاهدنا على المضي يداً بيد في دروب الحياة .

* * * * *

عاد « رودي » يحمل شهادة طب الأسنان من جامعة « برغن » وكان من المتوقع أن نعمد إلى الزواج فتم حفل زواجنا في أبسط ما يكون : لا طبلاً ولا زمراً ولا أهراماً من الحلوى في ارتفاع مترين فقد ألفنا ، نحن النروجيين ، بساطة العيش بل خشونته ، وما عرفنا الترف ، يتعالى به علينا أبناء عمومتنا وجيراننا فللسويد ثرواتها الصناعية وللدانمرك سبل تجارتها ، أما في النروج فنعتمد على موارد الريف وصيد البر والبحر وهي فقيرة ، ولكننا أغنى نفساً ، وأهدأ بالاً . وجاءت من ثم خيرات البترول على شواطئنا فما بدلت من خلقنا ولا خرجنا عما درجنا عليه من قبل .

قضينا أسبوعاً فيما يسمونه شهر العسل لا في باريز أو مدينة البندقية ولا على الشاطىء اللازوردي كما يتباهى بعضهم بل على متن قارب صغير في « فيوردات » النروج . وفيوردات النروج من آيات الله في خلقه خص بها بلادنا : شلالات كضفائر من الفضة تهبط من أعالي الجبال في إطار من خضرة الغابات ليتكسر ماؤها في زبد أبيض على الصخور وتمضي إلى بحر الشمال عبر مضائق عميقة ملتوية منثنية وكأن أيدي الجن عبثت بشواطئها فجعلت منها هذه المطرزات .

وهواية « رودي » هي ركوب قارب شراعي فوق هذه المضائق ، أحبها وخبرها منذ

فتوته ، والشلالات على اليمين وعلى اليسار في سيلها وهديرها هدى ومنارات .

والظريف أن الفيورد الذي قصدناه يدعى « فيورد العرائس السبع » إذ أن فيه سبع شلالات ويسعى إليه تقليدياً كثير من العرسان وكأن الفتاة عروس شهر العسل تزور عرائس الطبيعة السبع الخالدات .

وإذا اقتصر شهر العسل على أسبوع واحد فقد كانت حياتنا من ثم شهر عسل مستمراً .

* * * * *

لم تكن قريتنا « ميندي » تتسع لعيادة طبيب أسنان فانتقلنا إلى مدينة « برغن » المجاورة ولقينا فيها كل حفاوة ورحب أهلها بالطبيب الناشيء وبعروسه الشابة ، ومضت ثلاث سنوات على خير ما يكون وإذا بالأعاصير تهب فجأة وتأخذ بنا .

نشبت الحرب في شرقي أوروبا حين هجم الألمان على بولونيا في الخريف ثم امتدت الحرب إلى الغرب في الربيع التالي حين اكتسحوا فرنسا وما حولها . كنا نحسب أننا في معزل من الحرب فليس لنا في مشاكل القارة لا ناقة ولا جمل ثم إن النروج معتصمة بالحياد منذ القديم وأهلها مطبوعون على السلام حتى أن « ألفريد نوبل » الصناعي السويدي الثري عهد في وصيته إلى البرلمان النروجي بمنح جائزة نوبل للسلام من كل عام ، ولكن بدا أنه لا عاصم اليوم من أحداث الزمان والزمان غدار .

في ليلة ليلاء نزل الألمان في شواطئنا واحتلوا ديارنا . ليلة وكأن الأرض زلزلت زلزالها من فوقنا ومن تحت أقدامنا فما سبق للنروج أن عرفت الحرب قط وما سبق أن وطأت أرضها قدم محتل أجنبي . ولم يكن في وسع شعب صغير مسالم غير متأهب للقتال أن يواجه جحافل الوحوش النازية الكاسرة فعمدنا إلى المقاومة السرية ساعد فيها أن النروج عسيرة المسالك متعرجة الشواطىء وأهلها وحدهم أدرى بشعابها .

* * * * *

حاول الألمان التقرب منا فكانت وسائل دعاياتهم تؤكد ليل نهار أنهم قدموا ، على زعمهم ، للحيلولة دون احتلال القوات البريطانية للنروج وفق خطة مرسومة في لندن تسربت إليهم ، وأنهم إخوان لنا ونحن في النروج من الأسرة الآرية التي تمجدها العقيدة النازية . ما زاد هذا التضليل والنفاق المقاومة السرية إلا ضراوة وكانت ضحايا الألمان من

جرائها فوق ما كانوا يحتسبون في بلد مسالم . وحبنا للسلام لا يعني التخاذل والجبن ولنا في بطولات رواد القطبين الشمالي والجنوبي وقباطنة البحار من أبناء النروج دليل . وما لبث أن كشف الغزاة القناع وعمدوا إلى البطش والإرهاب .

* * * * *

كان رجال المقاومة يتلقون الأسلحة والذخيرة والمتفجرات من بريطانيا تحملها المراكب والغواصات في ظلمات الليل إلى مواقع مختارة من شواطيء النروج قرب الفيوردات وفي هذه الفيوردات من الثنايا والخبايا ما لا تصل إليه أيدي الألمان ، ثم إنه لا يقدم على الإبحار على مضائق الفيوردات إلا أبناء النروج العارفون بها .

تطوع زوجي « رودي » في المقاومة فعهد إليه ، وهو الخبير بالفيوردات برئاسة الفريق العامل في فيورد « العرائس السبع » فيورد شهر العسل ، وللأقدار عبث عجيب !

* * * * *

كان « رودي » يتسلل من البيت مع هبوط الليل يمضي إلى مهمته في المقاومة ويعود مع مطلع الفجر ثم يباشر عمله في العيادة في الموعد المعتاد دفعاً لكل شبهة . ويحدث أحياناً أنه لم يكن يعرف النوم إلا لماماً . دام هذا حوالي سنتين ، وفي صبح يوم أغبر سمعنا طرق الباب . أقبل علينا جماعة من شرطة أمن الدولة « غستابو » الألمان فاعتقلوني وزوجي وحملوا معهم من مكتبه كل ما قد يكون فيه دلالة أو وثيقة . لم يكن هذا الاعتقال مفاجأة فقد كنا نتوقعه ونحذره ، وللألمان عيون وأعوان فما يخلوا بلد من الخونة الحثالات .

بعد أسبوعين من الإستجواب في سجن عسكري أطلقوا سراحي ، أما زوجي فنقل إلى معسكر اعتقال في شرقي ألمانيا لم يذكر اسمه .

* * * * *

قضاء أسبوعين في سجن عسكري ليس بالأمر الخطر حتى من أجل امرأة شابة ما واجهت الحياة لوحدها من قبل ، ولكن حدث خلال هذا الاعتقال من الملابسات والصدف العجيبة ما لا يخطر في بال ، أروي لك منها ثلاث حوادث .

بعد أيام من اعتقالي ألقت السلطات الألمانية القبض على جماعة من فريق المقاومة الذي يرأسه زوجي « رودي » فذهب الظن أنني أفشيت سر رفاق زوجي تحت التهديد والتعذيب .

الواقع أنني ما علمت عن مهام رودي في القاومة ولا عن رفاقه لا قليلاً ولا كثيراً فما كان رودي يتحدث بهذه الشؤون وما كنت أنا أتعرض إليها . ثم إنه من الإنصاف القول إنني لم ألق تهديداً ولا تعذيباً ولو أن الاستجواب لم يكن يسيراً .

هذا وقد كان المعتقلون من جماعة المقاومة يكلفون بأعمال مضنية في تنظيف المرافق العامة ومهام من السخرة شاقة من قبيل الإهانة والإذلال ، ويبدو أن قائد السجن الألماني رفق بشبابي وأنا المرأة الوحيدة المعتقلة فكلفت بتنظيف المكاتب فذهب الظن إلى أن هذا العطف هو لقاء إفشاء السر والتعاون . ويشهد الله أنني ما توخيت هذا العطف لا من قريب ولا من بعيد .

زاد على هذا وذاك ما هو أدهى : قبيل اعتقالي شعرت بأنني حامل ، وقد كنت ورودي نتشوق إلى ولد بعد أن مضى على زواجنا ثلاثة أعوام ، فلما غادرت السجن وبدت بعد أشهر مظاهر الحمل ظن بعضهم أن هذا عقبى صلات جنسية مع قائد السجن ، تصور إلى أين تذهب ألسنة السؤ نهشاً في أعراض البريئات .

* * * * *

وفي « برغن » وهي المدينة الصغيرة شاعت هذه الظنون وتجاوبت أصداؤها كما في واد مغلق زاد في شيوعها جو النقمة على الاحتلال المقيت .

لم أطق هذا الجو الثقيل وقد أزهق روحي سيما وأنني في الأشهر الأخيرة من الحمل أحوج ما أكون إلى راحة النفس فغادرت « برغن » إلى العاصمة « أوسلو » .

بعد ثلاثة أشهر انسحب الألمان من النروج ثم استسلموا للحلفاء ، وكان في أحضاني طفلي الرضيع « أولاف » .

* * * * *

عقب انسحاب الألمان عمد الناس في النروج إلى الانتقام ممن تعاونوا مع الأعداء خلال الاحتلال . كانت موجة شعبية طاغية وكأن بركاناً من الحقد كان يمسك بخناقه الألمان فلما انصرفوا انفجر واندلع مائعه الناري .

كانت هذه الموجة تهدف في الأصل الذين حكموا النروج خلال الاحتلال باسم الألمان وعلى رأسهم « كويزلنغ » الذي ذهب اسمه في التاريخ رمزاً للخيانة الوطنية ، ولكن هذه

الموجة خرجت عن سبيلها وطغت فصارت الاتهامات بالتعاون تكال جزافاً عن وشايات وحزازات وأغراض شخصية في جو من الانفعال ما عرفته النروج في تاريخها ولا يتفق مع سجايا أهلها ، والواقع أن الاحتلال الأجنبي مفسدة لأخلاق الشعب .

وهكذا بلغتني هذه الموجة واستدعتني النيابة العامة لدى المجلس العدلي الذي أقيم لمحاكمة المتعاونين وقد استندت إلى الظنون التي شاعت حولي في « برغن » في رسائل وجهها إليها بعضهم ، وسرعان ما تبين للمحققين أن هذه الوشايات باطلة لا تستند إلى أساس ولكن ما انقطعت الأقاويل والنظرات النكراء من حولي ، ولا أنسى في تلك الظروف الحرجة مروءة بعض رفاق زوجي في المقاومة ممن عرفوني فانبروا كالأسود للدفاع عني في شهادات مشرفة .

* * * * *

كان حادث « أوسلو » هذا القطرة التي طفح بها الكأس : زوجي « رودي » الذي تطوع في المقاومة يعاني البلاء في معتقله البعيد وزوجته البريئة عرضة للشكوك والاتهام ! هذا ظلم ونكران ووضع لم أطق عليه صبراً فقررت أن أغادر النروج دون عودة بعيداً بعيداً ، إلى أوستراليا أو نيوزيلاندا ، ولكن رفاق « رودي » أبوا عليّ ذلك فما يجوز لإمرأة شابة وطفلها الرضيع في أحضانها أن تقصد إلى ما وراء البحار من أقصى الأرض ، ثم إن زوجي عائد في القريب فقد حررت أوروبا من ربقة النازيين أو كادت وأخذ كثيرون من المعتقلين يعودون إلى ديارهم واقترحوا عليّ أن أغادر إلى كوبنهاغن ، والدانمرك ليست بعيدة ولا غريبة عنا ، وتوسطوا لدى أصدقائهم فيها فدبروا لي عملاً في متجر « نجم الشمال » كما رأيت .

* * * * *

كان يمسك بي طوال هذه الأحداث في « برغن » وفي أوسلو ترقب الفرج والفرحة بعودة « رودي » ليأخذني بين ذراعيه والطفل « أولاف » الذي لمّا ير أباه ونستعيد الحياة الهانئة ونسنى ما فات . كنت أتلقى رسائلة من المعتقل بانتظام طوال الحرب في حدود رسالة كل ثلاثة أشهر عن طريق الصليب الأحمر الدولي ، وكل ما يجاز له هو الكتابة تحت رقابة الألمان بالطبع ، أنه على قيد الحياة وفي صحة جيدة .

انتهت الحرب فانقطعت أخبار « رودي » فقمت باتصالات ومساع هنا وهنالك فكان كل ما حصلت عليه نتفاً من الأقاويل نقلها بعض المعتقلين النروجيين العائدين ليس فيها وضوح

ولا يركن إليها وأخيراً اتضح ما صار إليه « رودي » في ظروف عجيبة وخاتمة ما أظن أن لها سابقة في التاريخ .

* * * * *

طوقت قوات الجيش السوفييتي الأحمر معتقل « بركناو » في شرقي ألمانيا فدنت ساعة الخلاص للمعتقلين فيه وبينهم زوجي بعد أن لاقوا أهوالاً انقلبوا معها أشباحاً بلا أرواح .

تقدمت فصيلة من الجنود القيرغيز الآسيويين نحو أسوار المعتقل ومن حولها الأسلاك الشائكة وحقول الألغام ، وأدرك الحراس النازيون القائمون على المعتقل أن لا سبيل للدفاع وأن مصيرهم الإعدام فوراً لا مناص فعمدوا إلى حيلة شيطانية : نزعوا الزي العسكري النازي الذي يرتدونه وأرغموا بعض المعتقلين على نزع ثيابهم وهي مقلمة بخطوط عريضة باللونين الأزرق والأصفر وعليها صدراً وظهراً رقم السجين ، وارتدوا ثياب المعتقلين هذه أملاً في أن يحسبهم الجنود المهاجمون من المعتقلين ومن ثم يعمدون إلى الفرار والالتحاق بخطوط الألمان القريبة ، فلما دخل الجنود المعتقل أخبرهم بعض المعتقلين بخديعة الحراس وأرشدوهم إليهم فأعدمهم الجنود وما نجا منهم إلا قليل .. ويبدو أنه في حمية القتال والمطاردة والإعدام التبس الأمر وخرج عن الرقابة فلما شاهد بعض الجنود زوجي « رودي » وهو النروجي ذو الشعر الأشقر والبشرة الصافية البياض حسبه هؤلاء الجنود الاسيويون من الحراس الألمان المتنكرين فصرعوه . وفي تلك الظروف من القتال الدامي ما كان مصرع معتقل شيئاً مذكوراً .

تصور عبث الأقدرا في مصائر البشر : « رودي » الرجل الذي تطوع في المقاومة وقاوم النازيين في بلده يلقى حتفه على أيدي القادمين للمساهمة في تحرير أوروبا من النازية !

* * * * *

بهذا أنهت صونيا غروند هال حكايتها . صونيا النروجية القائمة على ركن لعب الأطفال في متجر « نجم الشمال » في كوبنهاغن . روتها في تأثر عميق تغالب دمعتين في عينيها الزرقاوين ، وكأنها تعيشها من جديد ، ثم لملمت خصلة من شعرها الأحمر تدلت على جبينها وقالت :

ــ أطلت عليك الحديث وليس فيه ما يبهج ولكنني حرصت على أن تحيط بقصة حياتي كلها ! والآن جاء دورك : قل لي ، ناشدتك الله ، ما الذي جاء بك من بلادك المشرقة

الدافئة إلى هذه الربوع الداكنة الباردة ؟ .

* * * * *

أردت أن أسري عنها بعض الشيء فعمدت إلى الدعابة وكان جوابي في شبه مسرحية قصيرة مرتجلة : وقفت قبالتها وقلت بصوت جهوري في وضع ممثل ناشيء من مدرسة المسرح القديمة يتحذلق أمام جمع حافل في أداء دور البطولة عدت معه إلى أيام المسرحيات التي كنا نمثلها طلاباً في حفل ختام العام الدراسي . قلت :

— اسمعي وعي : عي واسمعي : كان ذلك في ليلة ليلاء من شهر آب . آب اللهاب . ليلة تزين سمائها الكواكب . الكواكب كأنها الدرر نثرت على خميلة زرقآء . تطلعت إلى السماء وإذا بنجم يخر فجأة في اتجاه الشمال . تبعه شهاب ساطع . شهاب اخترق قبة السماء في اتجاه الشمال دوماً ، حتى إذا بلغ الأفق البعيد انفجر في باقات من الشرارات الحمر . شرارات حمر في لون شعرك الأحمر الأحمر . باقات هي آيات في الألعاب النارية السماوية .

عجبت لما رأيت وقلت خيراً إن شاء الله ، وقصدت من فوري شيخاً مغربياً من بلدي جمع إلى الصلاح والتقوى موهبة في تأويل الخوارق والأحلام . رويت له بعد تقبيل يديه ، ما رأيت فقال : عد إليّ يا طاهر بعد ثلاثة أيام عسى أن يفتح الله عليّ .

عدت إليه وأعدت تقبيل يديه فوضع يده المباركة على رأسي وقال : يا بني استمع إلى رسالة النجم والشهاب واعمل بها . إرحل من فورك إلى بلاد الشمال و اسع في مناكبها حتى تلقى امرأة ذات شعر أحمر هي ضالتك المنشودة !

* * * * *

ضحكت صونيا وأغرقت في الضحك وتلاقت نظراتنا ... وبعد فترة سألتني :

— هل لصاحبك الشيخ المغربي أحفاد أو أسباط ؟

عجبت لسؤالها هذا حتى أضافت :

— أود أن أبعث إليه ببعض الهدايا من لعب الأطفال !

☆ ☆ ☆

هدايا إلى تاتيانا في موسكو

صديق العمر طاهر بن سيدي حنون يتحدث إلي وأنا بقربه ولكنه بعيد في خاطره وفي دنيا ذكرياته يصدر عن وحيها في نشوة من صدى السنين الحاكي حدثني يوماً قال :

« ريغولونز » من أصدقائي في كوبنهاغن ، وهو من كبار رجال الأعمال جمع ثروة طائلة من وراء تجارة المكائن الثقيلة جداً من الرافعات والناقلات والداحيات يستوردها من اليابان ويؤجرها للأعمال الإنشائية الكبرى حتى إذا هرمت باعها إلى بلاد شرق أوروبا . والظاهر أنه لا يزاحمه أحد في بلده في هذا الميدان .

وعلى حد قوله ، وهو مرح خفيف الظل : إن الدانمرك جزر محاطة بالماء فلا يجرأ سواه على استيراد مثل هذه المكائن الثقيلة خشية أن تخسف الدانمرك إلى قاع البحر !

* * * * *

وأصحاب الثروات يتوقون إلى الجاه وقد كان صاحبي رئيس جمعية الصداقة السكاندينافية ــ الأفريقية في أول عهدها حتى اختارته دولة « بوركينا » من غرب أفريقيا قنصلاً فخرياً لها . ولا يعرف الكثيرون في الدانمرك أين تقع بوركينا هذه ولكن المهم أن « بوركينا » أتاحت له لقباً فخرياً ولوحة قنصلية على سيارته وعلماً يخفق على شرفة داره ، وفوق كل هذا ، وهو بيت القصيد ، صلات ومداخل في الأوساط العليا لتيسير أعماله .

* * * * *

كنت في سبيل مغادرة كوبنهاغن إلى موسكو فهتف إلي صديقي « لونز » يقول إن في مكاتبه موظفاً من أصل روسي يدعى « سرغي » وهو يرجو مقابلتي قبل سفري . ولما سألته من يكون سرغي هذا أجاب أنه ينحدر من أسرة نبيلة في لينينغراد اليوم وقد لجأ إلى الدانمرك منذ عهد طويل وعمل في فرقة الباليه الراقصة في أوبرا كوبنهاغن ثم غادر المسرح لأسباب صحية وهو يعمل حالياً في مكاتبه في ترجمة المراسلات إلى الاتحاد السوفييتي .

ما عرفت لاجئاً روسياً إلى بلاد الغرب إلا وذكر أنه ينحدر من أسرة عريقة الحسب والنسب غادرت قصرها في بترسبورغ حين قيام ثورة تشرين . والحق أنني لا أرتاح إلى أمثال سرغي من اللاجئين ما يدري المرء ما ورائهم من مهام وأهداف تحيط بها الشبهات

أنا في غنى عنها ، وإذا صح أنهم لاجئون حقاً فقد تنكروا لوطنهم وهو أحوج إليهم من مدن الغرب الكبرى التي يتسكعون فيها .

اعتذرت لصاحبي بأن مشاغلي كثيرة في الأيام القليلة الباقية من مقامي في كوبنهاغن ولكنه أصر وأضاف أن « سرغي » مسكين رقيق الحال يعاني عقداً نفسية وأنني أجبر خاطره في مقابلة لن تتعدى دقائق معدودة . ونزلت عند رغبته محرجاً .

* * * * *

قدم سرغي ، أو كما جاء في بطاقته « سرغي سرغيفتيش كافانسكي » ... كان متوتر الأعصاب متهيباً ترتعش يداه وترتجف شفتاه حين يهم بالكلام . ولم يكن من اليسير إدراك ما يقول فقد كان يتأتىء في نطقه من جراء عقدة في لسانه يحاول التحدث باللغة الإنكليزية ولم يكن يجيدها . فإذا عصيت عليه وتعثر انتقل فجأة إلى اللغة الروسية حتى أوقفه فيعود إلى الإنكليزية ليتعثر من جديد ثم ينتقل إلى الروسية وهكذا ...

وبعد لأي تبين لي ما يرمي إليه : إنه يتوسل كيما أحمل رسالة منه وبعض الهدايا إلى زوجته « تاتيانا » في موسكو . قلبه في صدر تاتيانا ، وروحه بين يدي تاتيانا ، وحياته ومماته فداء تاتيانا ، أو كما يلفظها : تاتاتانا تياتياتا ... نا !

استجبت له ، ومن كان مثله لا يرد له رجاء ... غادرني وقد غالبني الرثاء والضحك . الرثاء لهذا الرجل المتهدم العاشق وزوجه بعيدة في موسكو . سمعنا في الأدب الجاهلي عن مجنون ليلى ، وها أني أشهد في هذا العصر مجنون تاتيانا . أما الضحك فمن جراء ما قادني إليه سرغي : أول مهمة أكلف بها في الاتحاد السوفييتي قبل وصولي إليه هي حمل رسالة مجنون ليلى إلى ليلاه !

* * * * *

كنت أتوقع أن تكون تاتيانا هذه على مثال زوجها سرغي ، نكرة منهارة وفق القول المعروف « وافق شن طبقه » ، وإذا بي أعلم بعيد وصولي إلى موسكو أن « تاتيانا فاسيليثيا ياكاتربيف » فنانة معروفة في طليعة الراقصات الباليرينات في مسرح « بولشوفي » المشهور وينتظر أن تكون يوماً من نجومه الصاعدة .

* * * * *

قصدت إليها في دارة صغيرة « داشا » تسكنها في ضاحية من موسكو تشاركها فيها زميلتان لها ، ومثل هذه الدارة لا يتيسر للكثيرين . استقبلتني هاشة باشة وكأننا سبق أن تعارفنا من قبل . أين تاتيانا هذه الهادئة المطمئنة من سرغي ذلك المضطرب الوجل !

بدا لي أنها تجاوزت عهد الشباب وأن نصيبها من الجمال في قدر معلوم ولكن عذوبة صوتها ووداعة ابتسامتها تضفيان عليها رونقاً وبهاءً . نحيلة جداً في قصر وذات شعر أسود فاحم وعليها مسحة من سمات أهل الشرق الأقصى : وجنتان بارزتان مثيرتان وعينان غائرتان عميقتان ، ومن يدري فقد تكون من ذراری الفرسان المونغول الذين هبطوا من صحراوات آسيا واكتسحوا روسيا وأقاموا فيها دهراً طويلاً .

* * * * *

كانت تاتيانا في مخدعها محاطة بمجموعة كبيرة من الصور معلقة على الجدران هنا وهناك ارتدت فيها زي الراقصة البالبرينا الأبيض الهفهاف المتهدل حول الخصر والكاشف عن النحر والساقين أخذت لها في مشاهد من مسرحيات الباليه على المسرح . لفت نظري بين هذه الصور صورة فريدة تبدو فيها تاتيانا في ثوب أبيض سوي ينسدل حتى الكعبين وإلى جانبها شاب وسيم الملامح يتدفق البشر من محياه . ولحظت تاتيانا ما أنا فيه فبادرتني قائلة :

— هذا هو سرغي ... أخذت لنا هذه الصورة يوم زفافنا ... ما أظنك تتعرف إليه في هذه الصورة وقد مضى عليها إحدى عشر عاماً وتزيد ... لو عرفت سرغي إذ ذاك ... كان زينة الشباب وما أدري ما حاله اليوم ورسائله نادرة فما ينبغي لي أن أتلقى رسائل من لاجىء إلى الغرب والبريد الخارجي مراقب وإنما يعمد سرغي بين الحين والحين إلى تهريب رسالة عن طريق صديق له من ليتوانيا على بحر البلطيق يعمل في شركة نقل بحرية ترسو بواخرها في كوبنهاغن وفي لينينغراد . وفي رسائله هذه قلما يتحدث عن نفسه ولكنني أدرك بين السطور أنه مشوش الفكر كما ألحظ من خطه أن رعشة ألمت بيده ... لو عرفت سرغي في زماننا ...

— وكيف يكون زوجك وهو يقيم في كوبنهاغن منذ أمد طويل ؟ وما الذي دفع به إلى الدانمرك وأبقاك في موسكو ؟

— أما روى لك سرغي قصتنا ؟ إنها لا تصدق وهل يصدق أحد أننا زوجان منذ إحدى عشر عاماً و لم نقض ليلة واحدة تحت سقف واحد ! ما عرف قصتي هذه مخلوق

سوى سرغي بالطبع ، ولو ذاعت قصتي لأقامت علي السلطات النكير ولآذتني في عملي وفي معاشي . كتمت هذه القصة حتى على الأقربين طوال هذه السنين أما وأنك غريب عن هذه الديار ومشاكلها وقد وثق بك سرغي وسعى إليك واستجبت له فسأرويها لك تفريجاً عن نفسي .

* * * * *

تعرفت إلى سرغي في معهد تحضير راقصات الباليه وراقصيها في لينينغراد . منذ طفولتي هويت رقص الباليه ونشأت على هذا الهوى ، وكنت أحاول تقليد خطوات الباليرينات وقفزاتهن ودورانهن ولما يستقم سيري على وجه الأرض حتى قيل إنني ولدت وفي قدميّ الخفان الرقيقان ذوا المقدمة المسطحة مما تحتذيه راقصات الباليه حتى يؤدين أدوارهن .

والطريق إلى عالم الباليه يبدأ بمعهد لينينغراد . وليس الدخول إليه ولا التخرج منه باليسير :

يتقدم إليه كل عام بضعة آلاف من المرشحات من كافة أقطار الاتحاد السوفييتي يختار منهن بعد مسابقة حوالي مائتي فتاة ، ورافقني الحظ فكنت واحدة من المختارات .

جمع بين سرغي وبيني في هذا المعهد هوى فن الباليه فكرسنا حياتنا من أجله ، وجمع بيننا فوق هذا رباط الحب . شعرنا منذ الأشهر الأولى أننا خلقنا لنعيش معاً يداً بيد في دروب الفن الذي هويناه .

بعد أربع سنوات تخرجنا ، سرغي وأنا ، من المعهد في عداد الأوائل فكان نصيبنا الانتساب كلانا إلى مسرح بولشوفي في موسكو .

* * * * *

مسرح بولشوفي هذا ، كما تعلم ، هو الهيكل الأعظم وذروة الأقداس في عالم الباليه ، منذ تأسيسه لحوالي قرنين من الزمان ، له من أمجاده وتقاليده ونجومه مالا يدانيه مسرح في الدنيا . ما كنت أصدق أنني سأدخل هذا الفردوس المنشود .

شهدنا في اليوم الأول على جدران قاعة الاستقبال صور النجوم التي طلعت من سماء هذا المسرح وذهبت أسماؤها في التاريخ : بافلوفا ، بليتكايا ، اتيكايا ، ... من النساء ، ومن الرجال بوخاتين ، غورلوف ، رومنشوف ... عباقرة ارتقوا بالفن إلى مستوى السحر

والأساطير حتى قيل إنهم تحرروا من قيود الثقل على وجه الأرض وانطلقوا كالفراشات خفة وانسياباً ، وكان يسعد المواطن في الاتحاد السوفييتي أن يتاح له مرة في حياته مشاهدة أحدهم على المسرح ، وكانت مسارح الغرب الكبرى تتباهى باستضافتهم تتوق إليهم جماهيرها .

بدت لنا صور هؤلاء المشاهير كمنارات في الذرى ترشدنا ، نحن الناشئات والناشئين ، إلى مدارج الفن ، تزكي منها الهمم وتقوي العزائم . كنا نتطلع إلى هذه الصور تساورنا المنى والأحلام : ترى هل أصير يوماً ماكانت « بافلوفا » في زمانها وهل يصير رفيقي سرغي ما كان « غورلوف » في زمانه ؟

* * * * *

منى وأحلام سرعان ما جابهها الواقع : إن عدد هؤلاء المشاهير النجوم لا يبلغ عدد أصابع اليدين في تاريخ المسرح . ذلك أنه ينتسب إلى هذا المسرح حوالي عشرين فتاة من طليعة خريجات معهد لينينغراد فلا يحتفظ المسرح بعد سنتين إلا بعشر ، وقد تتفوق واحدة منهن بعد سنوات طويلة ، وقد يسطع نجم إحدى المتفوقات كل عقدين اثنين من السنين ! وكذلك من أجل الفتيان .

طريق طويل شاق وضيق عسير ولكننا ، سرغي وأنا ، عزمنا على المضي فيه مهما كلفنا من جهد وجلد وصبر . ومن يدري فقد يبسم لنا الحظ فأجدني ليلة بعد ختام العرض ، أقف وسرغي يداً بيد على خشبة المسرح ، نرد التحية للجمهور يصفق ثم ينتصب واقفاً هاتفاً فترات طويلة وفترات ... وتهبط الستارة ثم ترتفع لإعادة رد التحية مرات عديدة ومرات ... وتتساقط علينا باقات الزهر باقات عديدة وباقات ... من يدري ؟

* * * * *

تبين لنا في السنوات الأولى من عملنا في المسرح أننا ذهبنا بعيداً في عالم الأمل والطموح فقد بذلنا في عملنا كل ما نستطيع وفوق ما نستطيع جهداً ودأباً وعزماً ولكن دون طائل . كان يعهد إلينا بأدوار من المرتبة الدنيا ضمن مجموعة كبيرة من الراقصات والراقصين في مشاهد تشكيلية أو رقصات جماعية على هامش المسرحية هي أقرب إلى « الديكور » منها إلى فن الباليه . رغبنا في الاندفاع والظهور ونجدنا نكدح في عمل متواضع جماعي رتيب .

ومسرح بولشوفي ظاهره الشهرة وباطنه العذاب : حسد وتناحر ، رقابة ووشايات ،

حزبية وتكتلات ، بيروقراطية وقيود ، شفاعة ووساطات ... ثم إن رفيقي سرغي من لينينغراد ولا يعرف أحداً في موسكو ، وأنا من أسرة متواضعة فما كان لنا شفيع ولا حميم ، زاد على هذا أننا لم نكن منتسبين للحزب الشيوعي ولا نشارك في نشاط منظماته في أوساط الفنانين لا عن معارضة أو رفض ولا ترفعاً عن المكاسب المادية يسعى إليها الكثيرون من المنتسبين والناشطين ، وإنما لم نكن نعنى بشؤون الحزب وما إليها و لم تكن تستهوينا لا سلباً ولا إيجاباً .

لم أعبأ بكل هذه العقبات و لم تنل من إيماني بالمستقبل . كنت مستبشرة سغيدة يرشدني في حياتي هدفان : مسرح بولشوفي وفيه الفن الذي هويت ، وصحبة سرغي الرجل الذي أحببت .

وهل بي من حاجة إلى مزيد ؟

* * * * *

وهنا علق صديقي طاهر بن سيدي حنون قائلاً : لست في سبيل المفاضلة بين النساء في شتى بلاد الأرض ، ومن العسير الحكم في هذا الميدان ولكنني أشهد أنه ليس كالمرأة الروسية في دنيا الحب . تتفانى وتبذل في تضحية وعطاء يشارفان عبادة الرجل أو العبودية له ، وترى أن سر وجودها وهدف حياتها واكتمال أنوثتها في سعادة من تحب . إنها تهب نفسها في حب هادىء عميق ليس فيه تظرف ولا دلال ولا إغراء لا تبغي أجراً ولا شكوراً فلا يعرف حبها حدوداً ولا عائقاً وكأنه جبل الجليد السابح في البحر القطبي وفي جوفه بركان لا يقف أمام الجبل شيء ولا يفتر لهيب البركان منذ القبلة الأولى حتى النفس الأخير ، كل ذلك في بساطة وطيابة وعفوية ، أكاد أقول عن غريزة مطبوعة تقمصت فيها خير ما أودع الله في حواء لتسعد آدم في جناته .

* * * * *

عوداً إلى تاتيانا مضت تقول :

منذ عهدنا في لينينغراد أبدى سرغي رغبته في الزواج وإنما وقفت قضية المسكن في طريقنا ، وأزمة السكن خانقة كما تعلم فمن جراء هجوم النازيين على بلادنا في الحرب العالمية الأخيرة تدمرت الملايين من المساكن ولا سيما في موسكو ولينينغراد .

كنت أسكن مع والديّ في غرفتين من طابق تشار كنا فيه وفي مرافقه العامة ثلاث أسر . وكان « سرغي » يسكن مع زميل له في غرفة من الطابق الأعلى من بناء قديم أو بالأحرى نصف غرفة فقد كان سقفها يتدنى هابطاً حتى يلامس النافذة فإذا سار فيها سرغي وجب عليه احناء الرأس . وكان من حقنا بعد زواجنا أن نحصل على مسكن خاص بنا ولكن ذلك يتطلب انتظار سنوات ، ولنقل سبع سنوات على الأقل حتى يأتي دورنا بعد عشرات الألوف قبلنا ، هذا إذا جاء دورنا .

كنا في حيرة من أمرنا ، فإذا بمفاجأة سارة تطل علينا وتدفعنا إلى الزواج من حيث لا نحتسب .

* * * * *

استجابت إدارة مسرح بولشوفي لدعوة وجهت إليها منذ عهد طويل فوافقت على أن تقوم فرقة من فناني المسرح بجولة في عواصم البلاد السكاندنافية تمثل فيها طائفة من مسرحيات الباليه المعهودة في موسكو . ومن حسن الطالع كنا ، سرغي وأنا ، في عداد هذه الفرقة . ومثل هذه الجولة لأمثالنا هدية نادرة هبطت علينا من السماء وما تتوفر إلا لكل ذي حظ عظيم ، وما كنا لنحلم بها .

وهنا خطر لسرغي خاطر : لم لا نتزوج من فورنا فتكون هذه الجولة هي رحلة شهر العسل ؟ إنها فرصة العمر وستكون المتعة الكبرى في حياتنا وفي ذكرياتنا !

واندفعنا في طيش الشباب وهيام المحبين وعبث الفنانين . ولم يكن قد بقي على موعد السفر إلا أياماً معدودة فقمنا بالإجراءات الإدارية وكان حفل القران من أبسط ما يكون اقتصر على والديّ ولم يدر به أحد سواهما .

* * * * *

— هل لحظت في صورتنا يوم الزفاف الثوب الأبيض المنسدل الذي أرتديه ؟ ستضحك إذا عرفت كيف تدبرناه !

مثل هذا الثوب يبلغ ثمنه حوالي ثلاثمائة روبل ولا قدرة لنا على شرائه ، ثم إنه لم يكن لدي من الوقت والمعرفة لكي أخيطه بنفسي . وهنا خطر لسرغي خاطر ، وهو كما ترى أبو الخواطر ، فقال لي : لم لا نستعير ثوباً من مجموعات الثياب في مسرح بولشوفي ؟ إنها

متراكمة بالعشرات في مستودعاته فلا تلبس إلا في مناسبات قليلة .

عجبت لاقتراحه وقلت إن هذه الثياب ترتديها الفنانات في المسرحيات المناسبة حين يظهرن على خشبة المسرح وهي ليست للعرسان . ولكنه لم يبال .

كانت تشرف على مستودع الألبسة في المسرح امرأة متقدمة في السن نراها كل يوم في مقصف المسرح نتناول الشاي في فترة الراحة من التدريب . قصدنا إليها دون معرفة سابقة وذكر لها سرغي في صراحة ما نحن فيه لا ندري ما يكون ردها ، وتعهدنا بأن نعيد الثوب في الغداة على خير وجه و لم يمسسه سوء . ضحكت المرأة وأغرقت في الضحك وقالت إنها تعمل منذ ثلاث وعشرين سنة في مستودع الألبسة وما سبق أن تقدم إليها أحد بمثل هذا الطلب ! وعجبت أنه ما خطر في بال أحد من قبل وليس فيه بأس ولو أنه يخرج على الأنظمة المرعية .

قادتنا إلى غرفة كبيرة في قبو المسرح تكدست فيها مجموعات من الألبسة وملحقاتها من قبعات وأحذية ... صنفت وفق عهود المسرحيات وإطارها ، هذه لعصر النهضة وتلك للقرون الوسطى ... وهذه للشرق الأقصى وتلك لغرب أوروبا ... واخترت ثوباً أبيض طويته وأخفيته تحت معطفي ومضيت معه تنبعث منه رائحة النفتالين .

* * * * *

وأخيراً أبحرت بنا الباخرة « ليمونوف » من لينينغراد تحمل الفرقة المختارة من الفنانين والفنانات قاصدة استوكهولم وتنفسنا الصعداء في جو بحر البلطيق من حولنا . كان يرافقنا في هذه الرحلة زميل لنا في عداد الفرقة يدعى « باسيوماكنوس » وهو من أصل ليتواني ومتفوق في فنه ولكنه غريب السيرة والأطوار : طويل القامة بالغ النحول مهمل الهندام منسدل الشعر يضع على عينيه عوينات سوداء صيف شتاء ويدخن ليل نهار ويدعي أن الأرق يلازمه طوال الليل . كان يتحدث اللغة الروسية بصعوبة وبلهجة رطنة يتعثر فيها فيأخذه الغضب .

لكل هذا نفر منه الزملاء فلم يكن أحد يرغب في عشرته . خرج على هذا سرغي فقد كان يعطف عليه قائلاً إنه مسكين فقد أهله وهو طفل حين احتل الروس ليتوانيا في أوائل الحرب العالمية الأخيرة وأنه نشأ في دار للأيتام بعيداً عن وطنه فألمت به عقد نفسية أبرزها

النقمة على كل ما يتصل بروسيا وبالروس ، ثم إن سرغي وماكنوس كليهما من أبناء بحر البلطيق .

كان ماكنوس هذا يرافق سرغي أحياناً في زياراته لأهلي فيتناول الحديث برطانته المعهودة ينتقد إدراة المسرح وكبار الفنانين ويطعن في نظام الحكم السائد وينقم على ما حل ببلده ، ولم يكن أبي يأنس لمجلسه ولا يرى فيه عنصر خير فكان يطلب إلي أن أعمل كيما يخفف سرغي من صحبته ومقدمه قائلاً : إن ما فينا يكفينا .

ما كنت ولا أبي نحسب أن هذا المسكين ، على حد تعبير سرغي ، سيحول مجرى حياتي تحويلاً جذرياً .

* * * * *

بعد ساعات من إبحار الباخرة من لينينغراد انفرد ماكنوس بسرغي وأسر إليه حديثاً موجزه أنه قرر اللجوء إلى السويد بعد وصوله إلى استوكهولم وأنه يدير ظهره لموسكو مرة أولى وأخيرة وأن السويد بلد مضياف يعطف على اللاجئين ولا سيما من أبناء جمهوريات البلطيق الثلاث المجاورة : ليتوانيا وليتونيا واستونيا ويدبر لهم المأوى وسبل العيش ، وأن له خالاً يقيم في استوكهولم يساعده على شق طريق جديدة في الحياة ، وهو يدعو سرغي لأن يشاركه بصحبتي في هذا اللجوء ففي السويد وبلاد الغرب عامة الحريات والمجالات الرحبة لمستقبل باهر ، وضرب له مثلين الراقصة العالمية مدام « فونتين » في لندن والنجم الشهير الراقص « نورييف » في باريز لولا إقدامهما على اللجوء إلى الغرب لظلا نكرتين قابعين في كواليس مسرح بولشوفي ما درى بهما أحد ، وأكد له أن هذه الرحلة هي فرصة العمر للخلاص والنجاح فإذا فرطنا فيها بكينا عليها ما حيينا ...

تقبل سرغي اقتراح صديقه على الفور ، وهو سريع الإقرار والانفعال ، واشترط موافقتي ولكن كان من رأى ماكنوس أنه لا يجوز من قبل الحيطة والسلامة أن يعلمني بالأمر حتى الساعات الأخيرة قبل الإقدام على اللجوء ذلك أن بنات حواء ، على قوله ، صدرهن بالأسرار يضيق ولسانهن بالثرثرة طليق .

عجيب أمر هذا الماكنوس يحكم على النساء وهو الذي ما أظن أنه عرف امرأة في حياته !

* * * * *

أقمنا عند وصولنا إلى استوكهولم في فندقين اثنين حجزا بكاملهما للفرقة واحد للفنانين والآخر للفنانات في شبه عزلة عمن حولنا وتحت رقابة دائمة وفي شغل شاغل : تدريب في النهار وعرض في الأمسيات ، وإنما ترك يوم الخميس خلواً من التدريب للقيام بجولات جماعية ، يرافقنا الرقيب ، في سيارات كبيرة نطوف على معالم استوكهولم .

كان في منهاج الجولة الأولى زيارة القصر البلدي التاريخي للعاصمة السويدية على ضفة بحيرة « مالار » فأحكم ماكنوس خطته : في مدخل هذا القصر مخفر للشرطة والحراسة وليس علينا فور وصولنا إلى القصر إلا أن نجتاز عتبة هذا المخفر ونطلب اللجوء السياسي فنكون في مأمن لا تصل إلينا يد الرفيق الرقيب .

* * * * *

في ليلة الخميس المرتقب أعلمني سرغي بما تم بينه وبين ماكنوس فأخذتني سورة من الغضب هي أقرب إلى نوبة عصبية وانفجرت في وجهه بما لا عهد لنا به قائلة :

ـــ أعجب أنك تسير في ركب ماكنوس وهو كما قال أبي مراراً عنصر شؤم ونحس ! إنها مؤامرة سيئة العواقب لا حاجة لنا بها أصلاً . كيف أتخلى عن أهلي ووطني إلى بلد غريب ؟ ومن يضمن لك ذلك المستقبل الرائع العظيم ؟ لا لا لا ... خير لي واقع موسكو الذي ألفته من سراب الغرب الموهوم .

وانفجرت باكية فأخذني سرغي بين ذراعيه حتى إذا هدأ روعي اقتصر على القول :

ـــ لن أحاول إقناعك ولن أناقش . لعلي تسرعت ولعلك على صواب ، وإنما أطرح عليك سؤالين قصيرين : هل لنا في موسكو موطىء قدم نعيش فيه تحت سقف واحد ؟ وهل لنا في مسرح بولشوفي مستقبل مهما كان شأنه .

* * * * *

قضيت الليل ما عرفت فيه النوم أقلب الأمر على وجوهه . وفي الصباح في ساعة ضعف ويأس أقررت سرغي على ما عزما عليه واتفقنا على اللجوء إلى مخفر الشرطة في القصر البلدي .

في حياة المرء ساعات يغلب فيها الضعف واليأس ينزلق فيها من حيث لا يدري ويدفع عاجلاً أو آجلاً الثمن غالياً ، لو عرف في حينه عواقبها لولى منها فراراً . ولكن قل لي هل أتيح لأحد أن يطلع على الغيب ؟

وللأقدار عبث عجيب : في صباح ذلك الخميس ألمت وعكة بنجم فرقتنا « ماريا بلتسكايا » . كان في منهاج تلك الأمسية عرض مسرحية البالية « جيزيل » وهي اللؤلؤة المرموقة في عقد مسرحيات الباليه التي اشتهر بها مسرح بولشوفي تمتاز فضلاً عن موضوعها الشرقي الأسطوري الطريف بطائفة من رقصات فريدة في روعتها وطول أمدها تؤديها الراقصة النجم لوحدها حتى قيل إن مسرحية البالية « جيزيل » هذه هي امتحان عسير إذا نجحت إحداهن في أداء الدور الرئيسي فيها فقد بلغت في عالم الباليه مرتبة عليا .

أبى طبيب الفرقة على النجم ماريا أن تتعرض للجهد والإعياء في تلك المسرحية ، وأحرجت إدارة الفرقة وجماعة أوبرا استوكهولم فقد كان الجمهور يترقب هذه المسرحية وحجز الكثيرون من أرجاء السويد مقاعدهم وقدموا إلى العاصمة من أجلها . وأخيراً تم الرأي على أن تظل « جيزيل » في منهاج تلك الأمسية على أن تحذف منها الرقصات الشاقة الطويلة التي تنفرد بها عادة الراقصة النجم وأن تستبدل برقصات باليه جماعية تؤديها كوكبة من الراقصات الباليرينات . وكان من جراء هذا التدبير أن ألغيت جولتنا في استوكهولم وتوجهنا إلى مبنى الأوبرا لتدريب إضافي ولتأمين الانسياق في العرض المرتجل الجديد .

اقتصر هذا التدبير على الراقصات أما سرغي وزملاؤه فقد غادروا فندقهم وضمن المنهاج للجولة المرتقبة في استوكهولم ولم يكن لي من وسيلة للاتصال به وهو لا يدري بما طرأ علينا وكله ثقة أنني قادمة على اللجوء . وهكذا حيل بيني وبين سرغي واللجوء إلى السويد .

شاع بعد ظهر ذلك اليوم أن سرغي وماكنوس تخلفا عن العودة بعد الجولة وأدرك أعضاء الفرقة جميعاً ما وراء ذلك ولكن لم يجرأ أحد على السؤال أو التحدث عنهما .

تابعنا بعد استوكهولم دورتنا في كوبنهاغن وأوسلو ثم عدنا إلى موسكو .

* * * * *

لم تقع عيناي على سرغي منذ ذلك الحين أي منذ إحدى عشر عاماً ، كل ما عرفته من رسائله النادرة أنه تعاقد مع مسرح الأوبرا في كوبنهاغن ثم تردت صحته فعمد إلى أعمال ترجمة في مؤسسة تجارية . والظاهر من خلال رسائله أن أحواله ساءت مادياً ونفسياً وأن الغربة والوحدة قصمتا كيانه ولكنه يظل الرجل الذي أحببت ، والمرأة الروسية لا تعرف الوسط في الحب فهي كاللبوة إذا ما اختارت رفيقها وقفت نفسها عليه مدى الحياة على القرب والبعد .

وما كان لنا الخيرة فيما صرنا إليه : هو لاجىء في الغرب وأنا مقيمة في موسكو ولكنني أتقبل هذا الواقع ويقيني أن سرغي سيعود إليّ . نشأ حبنا في لينينغراد وترعرع في موسكو ولسوف تنعم به من جديد فوق أرض روسيا الطيبة هذه .

* * * * *

بهذا اختتمت تاتيانا حكايتها وهي هادئة مطمئنة على عادتها ولكنها لم تقو على كبح دمعتين حائرتين في عينيها العميقتين .

ناولتها هدايا سرغي التي حملتها إليها فأخذت تحل من رباطها وغلافها تستعرض ما حوته : كلسات « كايزر » ، أحمر شفاه « ديور » ، عطر « شانيل » ... مما تهواه بنات حواء ، ولا يتوفر لهن في موسكو ، ثم عادت فلملمت الهدايا قائلة :

ـــ سأحتفظ بها ليوم عودته .

* * * * *

أردت أن أبدي لها عطفي فخطرت لي حكاية طريفة وقعت منذ حين قصير رويتها لها :

كان في منهاج زيارتي الأولى لمدينة لينينغراد جولة في متحف « الأرميتاج » وهو أعظم متاحف العالم تراثاً واتساعاً ولو أنه قلما يرد ذكره في معرض الحديث عن المتاحف الكبرى . واتفق حين زيارتي أن احتفل هذا المتحف بحدث فني فريد :

في متحف الأرميتاج صورة الفنان الفلمندي الشهير « رمبرانت » من القرن السابع عشر رسمها بنفسه والمعروف أن قياصرة روسيا كانوا يعمدون إلى اقتناء اللوحات القيمة من الغرب . وفي المتحف الوطني في امستردام صورة زوجة هذا الفنان رسمها بنفسه أيضاً . وطالما تمنى هواة الفن والمعجبون برمبرانت أن يجمع بين صورة الفنان وصورة زوجه في قاعدة واحدة ولكن أحداث التاريخ وبعد البلدين وحرص كل متحف على كنوزه لا تتعدى عتباته ، كل هذا حال دون هذا القران . وأخيراً بعد مفاوضات طويلة عسيرة بين إدارتي متحفي لينينغراد وامستردام تم الاتفاق على تبادل الصورتين من قبيل الإعارة لفترة محدودة فنقلت صورة الزوجة من امستردام إلى لينينغراد في احتياطات فنية بالغة وضمانات مالية كبيرة وعرضت في متحف الأرميتاج إلى جانب صورة الفنان فكان اللقاء بعد فراق طويل .

وقد يجمع الله الشتيتين بعدما يظنان كل الظن أن لا تلاقيا

* * * * *

لم تستجب تاتيانا للحكاية وكأنها لم ترق لها واتجهت إليّ :

— سامحلك الله ! أتريد أن نصبر ثلاثمائة سنة على الفراق ؟

ثم عمدت إلى كأسين صبت بهما شراب الفودكا وناولتني أحدهما قائلة :

— مهما يكن ... غداً أو بعد دهر ... لنشرب نخب عودة سرغي ! .

وجرعت الشراب جرعة واحدة أتت على كل ما في الكأس وفق الطريقة الروسية التقليدية في الأنخاب كعبه أبيض دادنا فسايرتها ... ثم عادت إلى إملاء الكأسين ... « دادنا » !

وتوالت الأنخاب ... وأخذت عيناها العميقتان تتقدان وتزدادان عمقاً وكأنها تتطلع إلى عالم الغيب ترى هل يعود سرغي ؟

* * * * *

في عهد مقامي في موسكو كانت عودة سرغي وأمثاله من اللاجئين إلى الغرب أقرب إلى الأوهام والأحلام ، ولو عاد لسيق إلى معسكر اعتقال في سيبيريا يهلك فيه . أما اليوم وقد طلعت في أجواء الاتحاد السوفييتي وبلاد شرق أوروبا نسائم من الانفراج والاعتدال والتسامح فلا أستبعد أن يعود سرغي إلى تاتيانا فيلقى هداياه التي حملتها تنتظر مقدمه : طلاء أحمر « ديور » على شفتيها وعبير عطر « شانيل » في أحضانها !

☆ ☆ ☆

مقهى « مسك وعنبر » في باريز

صديق العمر طاهر بن سيدي حنون أعجب كيف يحفظ الكبيرة والصغيرة من ذكريات مضى عليها نصف قرن من الزمان ، وكيف يعيش وقلبه موزع بين صاحباتها في بلاد الله حدثني يوماً قال :

كلما قصدت حي جامع باريز ذكرت صاحباً لي اسمه نصوح الشعراوي من مدينة طرابلس الشام . جمعتنا منظمة اليونسكو الدولية للتربية والعلوم والثقافة في باريز . كان يعمل في قسم الترجمة وكنت أمثل المغرب في المنظمة وكنا نلتقي لدى تناول الغذاء في مطعم المنظمة فكان يحدثني في كثير من الحنين عن مدينة طرابلس الشام : المدينة الهادئة الوادعة وكأن أهلها أسرة واحدة كبيرة ومن حولها بساتين أشجار البرتقال على شاطىء البحر المتوسط ومن فوقها غابات الأرز والثلوج ، فيها عيش رغد كريم ، روح وريحان وجنة نعيم .

كنت أرد عليه متحدثاً عن بلدي : مراكش في جوامعها وزواياها تسكن النفس إلى تراثها وتقواها وغابات الأرز على جبال الأطلس تشرف على المحيط الأطلسي العظيم .

تعاهدنا على أن يزورني في مراكش وأن أزوره في طرابلس الشام . لما يتح لنا هذا ولا ذاك وما يزال العهد قائماً .

* * * * *

ظلت صلاتنا مقتصرة على لقاءات اليونسكو ، وبدا لي أن صاحبي غير راغب في تجاوز إطار المنظمة المسلكي المحدود . والواقع أنه كان أميل إلى العزلة عازفاً عن الصلات الاجتماعية فلم يكن أحد يعرف شيئاً عن أحواله الشخصية وأوضاعه العائلية والراجح أنه كان يعيش وحيداً ، وفي الحفلة السنوية الراقصة للمنظمة خلال انعقاد مؤتمرها العام كان يقدم لوحده لا رفيقة معه ويتجنب قاعات الرقص والموسيقا ومقاصف الشراب ويجنح إلى ركن طاولات « البريدج » ليلقى ثلاثة من هواة البريدج يشاركونه في اللعب .

كان السيد الشعراوي في نضوج الرجولة وسيم الطلعة يلفت النظر فيه شعر أسود فاحم كثيف فكان الزملاء يعجبون لسلوكه الأقرب إلى الزهد والنسك وهو في باريز ، وذهب الظن إلى أن في حياته سراً .

* * * * *

في ذات يوم من أيام الآحاد خطر لي أن أزور المدينة الجامعية في جنوب باريز لأشهد ما صارت إليه وأهلها من الجيل الناشىء وقد سبق أن قضيت فيها فترة من عهد دراستي . والحق أنني ابتأست لما رأيت وسمعت في زيارتي هذه ، أما المدينة الجامعية فقد اتسعت مبانيها كثيراً ولكن تردت أحوالها وتدنت ، أما الطلاب والطالبات فقد تبدلوا في القيافة والهندام وأعراف السلوك ، هذا في الظاهر أما في الجوهر فهو تضخم جامعي في تكاثر عددهم وهبوط السوية . كنت في غنى عن هذه الزيارة ومن الخير أن لا يعود المرء إلى مواطن ذكريات ماضيه فلن يجدها كما يعهدها في خاطره .

* * * * *

غادرت المدينة الجامعية واتجهت إلى حديقة « مونسوري » بقربها . طالما شهدت هذه الحديقة مشاهد الغزل وسمعت مواثيق الحب بين الطلاب والطالبات . كنت أسير في إحدى ممراتها وإذا بي ألقى صاحبي الشعراوي وجهاً لوجه ترافقه امرأة في مثل عمره دلف الشيب إلى شعرها قبل أوانه ، تدفع أمامها عربة ذات عجلتين قعدت فيها فتاة يبدو من رأسها المائل الساكن ومن نظراتها الخابية أن الأقدار قست عليها منذ الطفولة .

لحظت أن صاحبي فوجىء بهذا اللقاء وأحرج به والظاهر أنه لم يكن يتوقع أن يراني في هذه الحديقة . تبادلنا التحية ومضينا كل إلى سبيله .

* * * * *

في اليوم التالي جمعنا مطعم المنظمة وفق عادتنا فلم نتطرق إلى موضوع لقاء الأمس حتى إذا هممنا بالعودة إلى مكاتبنا رغب إليّ صاحبي أن نتناول الشاي معاً بعيد عصر ذلك اليوم عقب انتهاء العمل . وأدركت بالطبع أنه يود أن يتحدث عن لقاء الأمس فللمرة الأولى منذ تعارفنا يعمد إلى مثل هذه الدعوة .

اجتمعنا في مقصف المنظمة وكان شبه خال فلا يؤمه إلا القليلون في ساعة الانصراف . لم تلمس شفتاه كأس الشاي وكأنه في عالم آخر ، وبعد فترة بدأ حديثه قائلاً :

* * * * *

أعرف أنك والزملاء تعجبون لسلوكي وعزلتي وأنك منذ الأمس تتساءل ما شأن تلك المرأة والفتاة تصاحباني في الحديقة .. ما سبق أن فتحت قلبي لأحد وبودي أن أفرج عنه :

كان ذلك في أواخر الثلاثينيات في باريز ، وباريز إذ ذاك تزهو على الدنيا . وكنت في أيام عهد الشباب والدراسة ومن حولي العالم ليله ونهاره ربيع كله وأمامي المستقبل ، أمانيه وأحلامه زهر وريحان كله . وكان فندق « كلاريدج » في شارع الشانزليزه في أمجاده ، ولم يكن قد حول إلى مساكن وشقق كما هو اليوم ، وكان يقيم في قاعته الكبرى عصر أيام الآحاد حفلاً راقصاً يهوي إليه الشباب والفتيات ترافقهن أمهاتهن في الغالب .

قصدت هذا الحفل يوماً واتجهت إلى المشلح وإذ بفتاة ممشوقة القدة ناهدة وسيمة الملامح قبالتي . ما سبق لي أن رأيتها في حياتي وإذا بها في نظرة هي لمح البصر تصبح كل حياتي ، وكأن قوى خفية كانت جاثمة في كياني تترقب لحظة القدر ومعها فتاة الأحلام انطلقت من عقالها ودفعتني إليها . يتحدثون عن الحب الصاعق منذ النظرة الأولى وكنت أحسب أنه من قبيل الخيال أو الوهم وإذا به واقع أنا فيه : قبالتي الفتاة المثلى التي ساورت أحلامي في يقظتي وفي لياليّ وأيامي .

* * * * *

تبادلنا الابتسام وتوجهنا سوية إلى القاعة وكأننا على موعد ، قضيت الحفل كله أراقصها لا أبغي عنها بديلاً . وفي فترة تستريح فيها جوقة الموسيقى قدمتني إلى أمها السيدة لوبلان وكانت جالسة في حلقة كبيرة من الأمهات حول ساحة الرقص يراقبن بناتهن ومن يراقصن من الشباب . ومن يدري فقد يكون أحدهم خطيب الغد وصهر المستقبل !

دعوتها وأمها إلى المقصف وبدا لي أن الأم لم تكن مرتاحة البال ولعلها على حق فإنما جاءت الأمهات ببناتهن كيما يتاح لهن مجال للقاء الزوج المرتقب في التعرف إلى العدد الأكبر المستطاع من الشباب وها إن ابنتها « أنابيلا » يحتكرها شاب غريب قادم من آفاق بعيدة .

* * * * *

يذهب القول إلى أن باريز مدينة الفجور وأن أهلها منطلقون على هواهم ويشهد الزائرون بعض هذا في مرابع سياحية معروفة ، ولكن الواقع أن لدى بعض الأسر الباريزية من التزمت والحفاظ على التقاليد والأعراف ما يذكر بالقرون الخالية . قد تكون أنابيلا من أجمل فتيات باريز ولكن الأكيد أن أمها من أعسر الأمهات على وجه الأرض .

كانت أنابيلا البنت الوحيدة وهي يتيمة الأب منذ الطفولة فقد استشهد أبوها في الحرب

العالمية الأولى فكانت أمها تخشى عليها هبوب النسيم . لم تسمح لها بدراسة جامعية ولا بالتأهب لممارسة مهنة وظلت أنابيلا حبيسة بين يديها تحيطها بمزيد وبما فوق المزيد من العناية والتوجيه والرقابة حتى تلقى الزوج السعيد الحظ . وفي هذا السبيل كانت تسمح لها بالذهاب إلى منزل موسيقي متقاعد لدورس في العزف على البيان ، فكنا ننتهز هذه الفرصة للقاء .

والظاهر أن أعين الأم لم تكن غافلة عنا ولكن تأكد لها أنه لم يكن في لقاءاتنا من بأس فتجاهلت الأمر . وبعد أشهر يبدو أنها عرفت ؟ في غريزة الأم أن سلطان الحب ملك قلب ابنتها وأنه لا مرد له فتقبلت الواقع على مضض ودعتني يوماً إلى زيارتها للتعرف إلى أخيها خال أنابيلا .

* * * * *

سبحان الله ، منذ لحظة اللقاء الأولى ورغم عبارات المجاملة المعسولة لدى التعارف لم يوح هذا الرجل إليّ ما يشرح الصدر ، بل حدثني قلبي أنني لن آنس إليه ولن يأنس إليّ ، وقلب المؤمن دليله .

يدعى هذا الخال « فرديناند شابوليه » وهو مدير في شركة ضمان معروفة ، يلفت النظر فيه غدة كبيرة في الطرف الأيمن من عنقه تهتز حين يتحدث ، وكل ذي عاهة جبار . والإفرنسيون مثل سائر الشعوب ، لهم وعليهم والكمال لله وحده ، ولكن تبين لي أن المسيو شابوليه هذا يجمع أسوأ ما لدى بني قومه من ادعاء وتعصب وجهالة . في نظره أن هنالك فرنسا وفرنسا وحدها : آدابها وثقافتها ، أمجادها وتاريخها ، عطورها وخمورها ، نسائها وأزيائها ... وما سواها لا شأن له . فرنسا يهواها ولا يلتفت إلى ما دونها ، علماً أنه لم يغادر بلاده ، زاد في هذا أنه أمين سر رابطة المحاربين القدماء في الدائرة السابعة عشر من دوائر باريز العشرين .

* * * * *

هؤلاء المحاربون القدامى عانى منهم الناس كثيراً . سيقوا مجندين طوعاً أو كرهاً في الحرب العالمية الأولى ، والمعروف أن فرنسا خرجت منها منتصرة على الألمان وأنها تدين بهذا النصر إلى حد بعيد إلى حلفائها من الإنكليز والأميركان ، فلما عاد هؤلاء المحاربون من جبهات القتال وضعوا شارة المحارب القديم على صدورهم وأخذوا يتغنون ببطولات المعارك الكبرى من سهل فردان إلى نهر المارن ، ولو أن أكثرهم ما عرفوها ، حتى لم تعد تتسع لهم الدنيا ،

يظن كل منهم أنه هو الذي أنقذ فرنسا والمدنية الغربية وأن من حقه أن يمن على مواطنيه ويستعلي عليهم . أذكر من قبيل المثال أنه إذا دخل أحدهم مركبة نقل عامة توقع أن يقوم الركب إجلالاً له وأن يفسح له خير مقعد . ثم إنهم فوق كل هذا لا يطيقون الأغراب .

* * * * *

حاولت أن أسايره بعض الشيء سيما وأن هذه الزيارة كانت تهدف إلى خطبة أنابيلا كما سبق الاتفاق معها ولكن لم يكن مجال للتفاهم معه . قد يتفاهم المرء مع البدائيين من خلق الله في أدغال الأمازون أو صحراوات أوستراليا أما مع هذا الرجل في قلب باريز فلا .

أنهيت الزيارة دون أن أتطرق إلى موضوع هدفنا وفي جو أقرب إلى التوتر ، انصرفت وأنا أستمع في الخاطر إلى ما يقوله الخال وراء ظهري وغدته على عنقه تهتز غضباً :

ـــ لا لا لا ... لا يجوز في وجه من الوجوه أن تتابع أنابيلا هذه الصلات .. من يدري ما يصدر عن هؤلاء الشرقيين والآسيويين ولا سيما من العرب الإسلام ... أوليس في فرنسا كفاية من الشباب حتى تعمد إلى الأغراب ؟

* * * * *

لم يوهن موقف الخال هذا من عزم أنابيلا وعزمي على المضي قدماً في مشروعنا ، والحب يهوى العوائق وتزيد في لهيبه ضراماً . وهكذا عمدنا إلى الخطة التالية :

كان الربيع في طلعته على الدنيا وكان اليوم السادس من شهر نيسان عيد ميلاد أنابيلا وفيه تبلغ العشرين من عمرها ، وكان في نية أمها إقامة حفل لائق لهذه المناسبة فاتفقنا أنابيلا وأنا على أن نفاجىء الحفل بإعلان خطوبتنا على رؤوس الاشهاد وضعاً أمام الأمر الواقع .

* * * * *

وما كنا لنطلع على الغيب فقد اكفهر الجو الدولي في غرب أوروبا لتوقع هجوم الألمان على فرنسا بعد أن اكتسحت جيوشهم بولونيا في الخريف الفائت وتوالت الأحداث بضربات القدر لا مرد لها وإذا بأرتال المدرعات الألمانية تندفع في هجوم صاعق وتخترق حدود فرنسا وتدع ورائها خط « ماجينو » الدفاعي الشهير في حصونه وأبراجه ، وفي أنفاقه وألغامه ، وفي المليارات التي أنفقت عليه وكأنه لم يكن شيئاً مذكوراً وتقدمت المدرعات تهدد باريز . كل هذا في أيام معدودات حتى فقد الناس وعيهم .

كان عليّ أن أغادر فرنسا عوداً إلى طرابلس الشام .

* * * * *

قضيت سني الحرب في بلادي وقد انقطعت الصلات مع فرنسا وأخبار أنابيلا معها ، ولكنها ظلت في خاطري ليلي ونهاري وهي دنياي كلها . كنت أتابع أنباء الأحداث في فرنسا : الاحتلال والمقاومة ونزول قوات الحلفاء على شواطئها وأخيراً تحرير باريز ، وكأن أنابيلا محور الأحداث وكأن فرنسا تقمصت في أنابيلا ، متسائلاً ما صنع بها الزمان ؟

بدت لي تلك السنون في طول الدهر حتى إذا عاد السلام والصلات كتبت إليها فلما وصلتني رسالتها الأولى وجدت فيها مفاجأة ! جاء على ظهر الغلاف اسم المرسلة : مدام أنابيلا دوشومونفيل !

* * * * *

ما صدقت عينيّ . الآنسة لوبلان أصبحت السيدة « دوشومونفيل » ؟ صدمة . وفي حياة المرء صدمات تذهب في الأعماق فلا يسع الزمان مسح جروحها . كنت أخشى على أنابيلا مكاره الحرب ومكاره الحرب كثيرة ، وكنت أحسب لها حسابها أما أن تنقض عهدنا وأن تتزوج في تلك الأيام خاصة وفرنسا في حداد قومي لما تعانيه من احتلال وهوان فما كان يخطر لي في بال .

وأخذت رسائلها تتوالى تذكر لي فيها ما حدث لها .

* * * * *

فتش عن الخال ، تبين أن صاحبنا خالها ، وهو المحارب القديم ، أحكم خطته مستثمراً غيابي وظروف الحرب فعزم على أن تتزوج أنابيلا قبل أن تنتهي الحرب وقبل أن يتاح لي العودة إلى باريز .

عمد إلى إقناع أنابيلا أنه لا سبيل لعودتي من لبنان إلى فرنسا وأنه من الحرام أن تقضي زهرة شبابها في انتظاري دون طائل . والواقع أن أنابيلا ما امتازت بحدة الذكاء ولا بسعة الاطلاع فاقتنعت بما يؤكده خالها من استحالة عودتي ، وخالها في نظرها أعرف بالأحوال الدولية . بقي عليه إيجاد العريس .

* * * * *

كان له قريب ، عن طريق زوجه ، يدعى أدمون دوشو مونفيل من أسرة بالغة الثراء تملك إحدى بيوتات صنع الشمنانيا المعروفة و أملاكاً واسعة فيها كروم العنب الفاخر يتوسطها قصر تاريخي قرب « أيبرني » في شرق باريز في مقاطعة شامبانيا التي قيل فيها إن عنبها أغلى من الفضة وترابها أغلى من الذهب ، ثم إن أسرة شومونفيل تدعي النبل والعراقة ، ولو أنها محدثة في هذا وترجع إلى أيام الإمبراطوار نابوليون الثالث من القرن الفائت ، والواقع أنها تدين بلقبها إلى زجاجات الشمبانيا لا إلى أمجاد الأسلاف .

منذ زمن بعيد وأدمون دوشومونفيل يطمع في أنابيلا ويحاول التقرب إليها وإقناع أمها يدعمه في هذا الخال وزوجه تمسحاً بلقبه وتكسباً من هداياه ، ولكن الأم لم تكن تطمئن إلى قريبها هذا فقد بلغها أنه يهوى الشراب وحياة الليل ثم إنه يكبر أنابيلا بحوالي عشرين سنة ، ولعلها ارتاحت إلى ظهوري على المسرح خلاصاً منه .

* * * * *

اشتدت وطأة الاحتلال الألماني في باريز وعمّ التقنين وتعسر التموين فلجأت آلاف من الأسر إلى الريف علهم يجدون في القرى من المواد الغذائية ما لا سبيل إليه في المدن . وجد « أدمون » في هذا فرصة سانحة فدعاهم جميعاً للإقامة في دارة قرب قصره في مقاطعة شمبانيا وهنالك أغدق عليهم من الطيبات ما لم يكن إذ ذاك يتيسر لأحد فقد كانت له مع أولي الأمر من الألمان صلات تبين فيما بعد أنها ليست بريئة كل البراءة .

وتابع الخال وزوجه يدعوان لقريبهما أدمون لدى أنابيلا وأمها يرددان أنه رجل نبيل وذو قصر عظيم وثروة طائلة . كانت فرنسا تعاني أياماً سوداء تزعزع الإيمان في قلوب الكثيرين من الناس ، وفي ساعة من الوهن واليأس استسلمت الأم ورضخت أنابيلا لمشيئة أدمون .

تم عقد القران في حفل بسيط لم يتجاوز عدد المشاركين فيه عدد أصابع اليدين .

* * * * *

أخيراً جاء الفرج وتحررت فرنسا ودقت ساعة الحساب فقد هبت على فرنسا عاصفة عاتية من النقمة على المتعاونين مع الأعداء خلال الاحتلال وكأن ما عِاناه الناس من بؤس وحرمان ، من ذل وهوان تفجر فانصب على رؤوس هؤلاء المتعاونين . لم تكن أيدي الإفرنسيين لتصل إلى الألمان وقد رحلوا فأخذت تبطش بأعوانهم لتذهب غيظ القلوب .

وهكذا قامت محاكم عرفية تصدر الأحكام بالإعدام وبالسجن الطويل المدى على كل من تعاون من قريب أو بعيد . كان بين الموقوفين بتهمة التعاون مع الأعداء أدمون دوشومونفيل .

* * * * *

في بداية الاحتلال صادرت السلطات الألمانية ما كان يرقد في الأقبية الشهيرة في مقاطعة شمبانيا من فاخر الخمور ، وكان فيها على ما يذكر حوالي ستين مليون زجاجة شمبانيا أرسل جزء منها إلى ألمانيا كيما يشرب كبراؤهم أنخاب الانتصارات وصدر القسم الأكبر ، عن طريق بعض البلاد المحايدة ولا سيما السويد وإسبانيا ، لقاء استيراد بعض المواد الأساسية في صناعة الحرب .

ويبدو أن أدمون دوشومونفيل عرض خبرته في شؤون الشمبانيا على المسؤولين الألمان فرحبوا بها و لم يكونوا يعرفون كثيراً عن مذاق الشمبانيا وأصنافها وطرق حفظها ونقلها . زاد على هذا بأنه أرشدهم إلى أقبية سرية هي نوع من الأقبية تحت الأقبية في أعماق الأرض ذات شروط جوية ممتازة لإيداع الخمور ولا يعرف مداخلها ومسالكها إلا الأقلون من العاملين فيها ، فأجازوه لقاء خدماته هذه بأن تخلوا له عما في أقبيته من زجاجات الشمبانيا فتاجر بها في السوق السوداء ، على علم منهم ، وجمع من ورائها ثروة طائلة .

* * * * *

في ذلك الجو المحموم من النقمة على المتعاونين أثارت فضيحة الشمبانيا هذه الرأي العام سيما وأن بعض الصحف نشرت أخبارها في صدر صفحاتها وحملت على أدمون دوشومونفيل كنموذج لمدعي النبالة أعماهم الجشع فخانوا الوطن واستثمروا شقاء الشعب وأطلقت عليه لقب « بطل الشمبانيا » وفي هذه التسمية تعريض أليم وسخرية لاذعة فقد سبق في الأيام الأولى من الغزو النازي أن دارت على أرض مقاطعة شمبانيا معارك ضارية سقط فيها من المحاربين الإفرنسيين أبطال .

وفي قاعة المحاكمة جلس أدمون في قفص الاتهام يلقى من سباب الجمهور ومن تهكم المدعي العام ما يستحق ، وصدر الحكم بسجنه عشرين عاماً وبمصادرة كل ما يملك من الأراضي والكروم والقصر وما فيه .

* * * * *

والمصائب لا تأتي فرادى . كانت أنابيلا إذ ذاك في الأشهر الأخيرة من حملها ثم وضعت بنتاً جاءت مشوهة الجسم والعقل : شلل في الساقين ، ورأس ضخم في عينين جاحظتين ، وخلل في الملكات الفكرية .

أما وقد صودر القصر فكان على أنابيلا أن تغادره خالية الوفاض وقصدت إلى باريز لتسكن في شقة متواضعة تحنو فيها على الوليدة البائسة فقد كانت أم أنابيلا انتقلت عقب الحرب إلى رحمة الله .

* * * * *

بعد فترة من هذه الأحداث صدر في فرنسا تشريع استثنائي يجيز الطلاق حكماً لزوجات المحكومين بجريمة التعاون مع الأعداء ممن تجاوز حكمهم بالسجن سبع سنين فعمدت أنابيلا إلى الطلاق من زوجها وهو في غياهب السجن .

* * * * *

هذا ما تجمع لدي عن أنابيلا وأنا لم أزل في طرابلس الشام . وواقع الحال واضح ويقضيني المنطق بأن أتخلى عن أنابيلا والسلام . ولكن متى كان للقلب أن يرضخ لحكم المنطق وواقع الحال . هنالك أشجار باسقة دوحات تجتث من فوق الأرض عن بكرة أبيها لا تشهد لها باقية حتى أن قاعدتها تطفو عليها الأعشاب وتأتي على آخر آثارها ولكن تظل جذورها في الأعماق تمسك بالتراب ويمسك بها يتعانقان لا ينفصلان . أنابيلا تمكنت من القلب فلن يتخلى عنها .

* * * * *

وهكذا أخذت أجد لها المعاذير في سلوكها ، أو الأسباب المخففة كما يقولون في دور العدل . إن ظروف الحرب قاهرة ويغفر فيها ما لا يغفر في أيام الدعة والسلام ، وإن خالها لجاج مكار ، وإن أدمون بارع في الإغراء ، ثم إن أنابيلا لم تتح لها قوة الشخصية فما برحت أمها تلزمها وتوجهها في الكبيرة والصغيرة على السواء .

لن أعرف الراحة والاستقرار حتى أعود إلى باريز وألقاها ، ومن بعد ذلك يحكم الله ما يشاء .

* * * * *

وإذا أراد الله أمراً هيأ أسبابه . كانت منظمة اليونسكو للتربية والعلوم والثقافة في مطلع عهدها وتنوي عقد مؤتمرها العام في بيروت وعلى رأسها وزير الثقافة الأسبق في المكسيك ، وكان على رأس اللجنة التحضيرية لهذا المؤتمر سفير سابق للبنان في المكسيك وهو من زغرتا قرب طرابلس الشام ومن آل أبو خاطر وصديق لي وبين أسرتينا صلات وثيقة ، وهذه الصلات بين أسر زغرتا وطرابلس ترجع إلى أجيال . طلب إلي هذا الصديق أن أعاون في شؤون المؤتمر فلبيت رغبته ثم خطر لي بعد انفضاض المؤتمر أن أعمد إلى عمل دائم في المنظمة ، وكانت في سبيل تأسيس مكاتبها الرئيسية في باريز ، فتوسط صديقي وعينت في قسم الترجمة منها . لم يكن هذا المنصب ليغريني ، وهو كما تعلم أقرب إلى التواضع ، وإنما كان هدفي السعي إلى أنابيلا والمقام في بلدها .

* * * * *

كتبت أنابيلا إلي أنها ستكون في استقبالي في مطار « أورلي » قرب باريز وفي الطائرة أخذت أحدق فيما وراء الكوة وكأنني أتطلع إلى أنابيلا من خلال السحب وأعالي السماء أتوق إلى ساعة اللقاء وقد حلمت بها طوال سنين ، وها هي قد اقتربت فيساورني فيما أنا فيه من الابتهاج ، شيء من القلق . من يدري بعد هذا الفراق الطويل ؟

وفي المطار وقف جمهور المستقبلين وراء حاجز زجاجي كبير ، لم أر أنابيلا بينهم أو بالأحرى ما عرفتها حتى إذا أقبلت رأيت إنساناً آخر : امرأة بدينة مترهلة غلب الشيب على شعرها في وجه مدور مليء تدلى منه خداها وغاصت فيه عيناها ، ترتدي ثياباً يبدو أنها قديمة وضاقت عليها فبرز على جسمها هنا وهنالك تكورات وكتل وطيات تنبيء عما تراكم تحتها .

* * * * *

ذهلت لما رأيت وانتابني شعور مفاجيء بأن هذه المرأة غريبة عني نكراء لا أطيق لقياها وكأنما تفتحت بصيرتي فرأيتها في حقيقتها : إنها المرأة التي نقضت العهد وخيبت آمالي وأحلامي . إنها المرأة التي عمدت إلى الرجل الثري الخوان وإلى حياة القصر في أيام نكبة بلادها .

لم تقتصر نقمتي عليها بل نقمت على نفسي : ألهذه المخلوقة وهبت قلبي وحرّمته على

سواها من بنات قومي ؟ أمن أجل هذه المرأة غادرت بلدي لألحق بها وانخرطت في عمل تافه في المنظمة ؟

* * * * *

اقتربت مني فتأملت فيها متسائلاً : يا ربي هل يمكن أن يتغير إنسان هذا التغير الكلي في أقل من سبع سنين ؟ ولكن الأعجب هل يرد أن يتحول شعور المرء نحو من أحب هذا التحول الجذري في ثوان ؟

كانت لحظة حاسمة في حياتي ، وفي حياة المرء لحظات ينطلق فيها القدر ليدفعه في سبيل لا خيار له فيه .

* * * * *

عدت إلى نفسي في الأيام التالية أجابه الواقع بعد أن عشت سنين في الأوهام والأحلام : أنابيلا لوبلان الفتاة التي أحببتها ولّت وصارت من ذكريات الماضي . ماضي لن يعود فقد أغلقت عليه الأحداث الأبواب مرة أولى وأخيرة ، أما السيدة دوشومونفيل طليقة الرجل السجين وأم البنت المقعدة فلا شأن لي معها ولن يكون .

وهكذا زهدت بالحب وأهله أعيش لوحدي فلا يتسع القلب بعد هذا الجرح البليغ لحب جديد .

توقف السيد نصوح في حديثه وكأنه يطوي سجلاً قديماً ليفتح آخر واستأنف يقول :

لم يكن من المروءة أن أقطع معها كل القطع وهي الوحيدة والمنكوبة في ابنتها . أزورها مرتين في الأسبوع ثم نقوم بنزهة في حديقة عامة تدفع أمامها عجلة البنت كما شهدتنا في الأمس ، أو نقصد مقصفاً نتناول فيه بعض الشراب والزاد ، تقوم بيننا صلات رفيقين سبق لهما أن شاركا في مرحلة هي أحلى مراحل العمر ثم شاءت لها الأقدار خاتمة مريرة .

وفي لقاءاتنا هذه نتحدث في شؤون شتى ولكن ما تطرقنا مرة إلى تلك المرحلة نتجاهلها ونتناساها وهي دوماً في خاطرنا ولسان حالنا في الظاهر :

كأن لم يكن بين الغدير إلى منى حجيج ولم يسمر بمكة سامر

* * * * *

بهذا ختم صديق العمر طاهر بن سيدي حنون حكاية صاحبه السيد الشعراوي وأضاف :

قرب جامع باريز مقهى معروف يدعى « قهوة مسك وعنبر » هو في زخرفه ومصابيحه ، وفي طنافسه وأرائكه تقليد لقاعات الشاي القديمة في مراكش . وصاحب هذا المقهى الحاج باكورة مواطن لي من قرية نجران قرب مراكش وهو يعتز بأن الشاي لديه لا يفوق عليه شاي في الدنيا . ونحن أبناء المغرب نهوى الشاي الأصيل ، لا الشاي الهجين المعروف في أوروبا يشربونه عكراً في فناجين من الخزف الثقيل ، بل الشاي المنعنع على الطريقة المغربية في كأس من زجاج رقيق ذي خصر دقيق يتمتع اللسان والأنف والعين بطيباته مذاقاً ولوناً وعبيراً .

أتردد بين الحين والحين إلى مقهى « مسك وعنبر » يطيب لي الاستجمام والحنين في جوه الوادع والاستماع إلى ما يذاع فيه من موسيقا شرقية مسجلة وألقى فيه كل حفاوة .

واتفق أن سألني الحاج باكورة يوماً عن أغنيتي المفضلة فقلت إن الأغنية الأثيرة لدي قديمة العهد للسيدة أم كلثوم مطلعها « سلوا كؤوس الهوى هل لامست فاها » وهي في نظري تحفة في النظم والتلحين والغناء .

ويبدو أن الحاج باكورة سعى حتى حصل على تسجيل لها فكان يذيعه كلما قصدت مقره .

* * * * *

بعد أيام من حديث صاحبي السيد نصوح دعوته ، تسرية عنه ، إلى هذا المقهى وجلسنا في ركن منه قرب نافورة من الماء تترنح على حوض من الرخام الأبيض وأمامنا كأسان من الشاي فشدا صوت مطربة الشرق في « سلوا كؤوس الهوى ... » حتى إذا وصلت إلى قولها : « حمامة الأيك أيام الهوى ذهبت ... » أطرق صاحبي يتأمل في كأسه وأخذ يقرع بأنامله في إيقاع على المائدة ويردد :

حمامة الأيك أيام الهوى ذهبت .



الآخذة ما صفا في كراكوفيا

صديق العمر طاهر بن سيدي حنون إذا تحدث انطلق ولكن حذار أن تقاطعه وهو ابن المغرب حدة في الطبع وعصبية في المزاج . حدثني يوماً قال :

طوال مقامي في موسكو كنت أتردد على بولونيا مرتين في العام مقتصراً على عاصمتها فارسوفيا بحكم مهامي فيها . طالما أخذ عليّ أصحابي البولونيون إغفال مدينة كراكوفيا في أقصى الجنوب وهي ، على حد قولهم ، وجه بولونيا العريق الأصيل مؤكدين أنه :

في كراكوفيا جرت أخطر الأحداث في تاريخ بولونيا :

وفي كراكوفيا أسس الملك « ميسزو » المملكة البولونية الأولى واتخذها عاصمة له في منتصف القرن العاشر .

وفي كراكوفيا أعلن اعتناق الديانة المسيحية وقامت فيها الكنيسة الكبرى « الكاتدرائية » .

ولما كانت كراكوفيا في أزهى عصورها وأمجادها كانت فارسوفيا غابة ترتع فيها الدببة والذئاب .

وقصدت أخيراً كراكوفيا ... لألقى فيها دليلة السياحة الأميرة « هايدي » ...!

* * * * *

توجهت صباح اليوم الأول من مقامي في كراكوفيا إلى مكتب السياحة الحكومي . كانت تقف أمامه سيارة كبيرة « باص » خصصت لجولة السائحين اليومية على معالم المدينة . تشهد الرقع والبقع المتراكمة على الباص أنه تجاوز سن التقاعد ولكن مددت خدمته تقديراً وجبراً للخاطر . ويلحظ في جدران المكتب أنها لم تعرف فرشاة الدهان منذ أعقاب الحرب الأخيرة ، ولكن يغطي على كل هذا الدليلة الأميرة هايدي .

* * * * *

« هايدي » فلتة بين بنات قومها فللبولونيات مزايا كثيرة لا تدخل فيها الأناقة ولا خفة الدم ، وهايدي هي الأناقة وخفة الدم بالذات : في البشاشة والابتسام وفي المظهر والهندام .

كان الطقس غائماً قاتماً والسائحون الأغراب منكمشين في هذا الجو الثقيل من قاعة الانتظار فلما أقبلت هايدي حسبت أنها حملت معها أزاهير الربيع وشمسه الدافئة تنشر في المكتب فيضاً من الأنس .

أما الأناقة فما ترتديه هايدي عادي جداً مما صنع بالجملة لعشرات الألوف من مواطناتها ولكنه يبدو عليها شيئاً آخر : أنيقاً رفيعاً . السر في « الكتف » كما يقولون ، لا في القماش ولا في الخياطة ، سبحان العاطي .

زاد على هذا وذاك أن أسمها هيّن ليّن : هايدي ، والأسماء البولونية في العادة يكاد يستحيل لفظها على غير أهلها .

* * * * *

جرت بنا سيارة « الباص » لزيارة معالم كراكوفيا ، كان في الركب سائحون من روسيا ورومانيا ومن ألمانيا والمجر يضاف إليهم وفد من رجال الأعمال اليابانيين يرافقهم قنصل اليابان الفخري في فارسوفيا ، وأخيراً ... الداعي من المغرب .

كانت « هايدي » الدليلة الوحيدة والظاهر أن موارد المكتب السياحية محدودة ، فتساءلت كيف تستطيع هايدي ، وهي لا تعرف من اللغات الأجنبية إلا الإنكليزية أن تتحدث إلى هذا الخليط من السائحين وكأن السيارة برج بابل ؟ .

وعين الرضا عن كل عيب كليلة وبدا لي أن رفاقي راضون جميعاً عن هايدي ففي جمالها وأنسها ما يغني عن الشروح الطويلة . والحق أن هايدي كانت تقحم بين الحين والحين كلمات من اللغات الروسية والألمانية والفرنسية وتستعين بشارات اليدين وسمات الوجه ، ثم إنه وزعت علينا نشرات في لغات شتى فيها إيضاح واف عن المعالم المزارة : قصر الثقافة — تمثال ستالين — المتحف — حديقة النبات — الجامعة ... ولو أن عيون الركب كانت تتطلع إلى هايدي لا إلى صفحات النشرة !

* * * * *

وقفت بنا السيارة عند عتبات الكنيسة الكبرى « الكاتدرائية » وفي النشرة شرح طويل عن مراحل بنائها وهندستها وزخرفتها وارتفاع أبراجها ... وجاء في الختام أن راهباً بولونياً بقي فيها خمس وعشرين سنة في العبادة والصلاة حتى استدعي يوماً إلى روما فوقع عليه

الاختيار ليكون البابا يوحنا بولس الثاني . وتفخر كراكوفيا اليوم أن أحد أبنائها تسنم ، للمرة الأولى في التاريخ ، سدة القديس بطرس في المدينة الخالدة .

في هذه الكاتدرائية أمر طريف لا مثيل له في كنائس العالم : منذ سبعمائة وسبعين سنة ينفخ رجل في البوق من أعلى برج الكنيسة ظهيرة كل يوم ذكرى للحدث التاريخي التالي : في أوائل القرن الثالث عشر قدم المونغول من أواسط آسيا واكتسحوا شرقي أوروبا حتى قاربوا كراكوفيا فأقام الملك البولوني خفراء يتناوبون على برج الكنيسة حتى إذا شهد أحدهم مقدم البرابرة من بعيد نفخ في البوق إنذاراً كيما يهب الرجال للدفاع ويلجأ النساء والولدان إلى المخابىء . وفي ذات يوم شهد الخفير غباراً تثيره جحافل المونغول فتناول بوقه وهم بالنفخ فيه ولكن الصوت انقطع فجأة ذلك أن سهماً أصابه في حلقه فخر صريعاً ولكن أهل كراكوفيا سمعوا بداية الصوت على كل حال . وما ينجي حذر من قدرٍ فقد استولى الغزاة على المدينة وعمدوا إلى السلب والسبي ثم أعملوا فيها النيران .

كان توقيت زيارتنا للكنيسة متفقاً مع موعد نفخ البوق فشهدنا الرجل في البرج وسمعنا صوت بوقه وحمدنا الله أنه نزل من برجه سليماً وأن كراكوفيا في خير وأمان .

* * * * *

في طريق العودة إلى مكتب السياحة تحدثت إلى القنصل الفخري البولوني المرافق لليابانيين وسألته لم يطلقون على دليلتنا هايدي لقب الأميرة فذكر لي من أخبارها عجباً قال :

نحن البولونيين نظل مفتونين بالألقاب ولو أن النظام السائد ألغاها كلها والدليلة هايدي هي الأميرة « هايدونيا سوبيسكي جيبلوفيتش » تجري في عروقها دماء أسرتين عريقتين هما أكرم الأسر البولونية مجداً وأخلدها أثراً في تاريخ بولونيا .

إنها من طرف أبيها سليلة الملك « سوبيسكي » الذي استجاب لنداء النمسا في العام ١٦٨٣ فزحف بفرسانه المغاوير إلى أسوار فيينا ودفع عنها جيوش القائد قره مصطفى العثمانية التي كانت تحاصرها فأنقذ أوروبا والمدنية الغربية والمسيحية .

وهي من طرف أمها تنتسب إلى أسرة « ياجيبلو » وهو الملك الذي دفع هجوم الجرمان التوتون القادمين من شواطىء بحر البلطيق على بولونيا وانتصر عليهم في معركة « تاننبرغ » التاريخية المشهورة في العام ١٤١٠ .

حتى الحرب العالمية الأخيرة كان أهل هايدي يملكون القصور والقرى ويتمتعون بالنفوذ والجاه فلما قام النظام الشيوعي جردوهم من كل شيء وأصبحت هايدي واحدة من عامة الناس تعمل لكسب قوتها ولكنها لا تبالي وتعيش مرحة هنية .

* * * * *

كان في منهاج الرحلة قضاء يوم وليلة في « زاكوبانا » وهي تقوم على مقربة من كراكوفيا في أعالي جبار « التاتار » المطلة عليها والتي تفصل بين بولونيا وتشيكوسلوفاكيا .

جاء في النشرة السياحية أن جبال التاتار هذه هي مركز الثقل في القارة الأوروبية والحق أنه لما تأملت في المصور الجغرافي الملحق بالنشرة بدا لي أن هذه الجبال هي صبرة أوروبا . والمعروف أن في ذرى الجبال ما يسمونه « خطوط تقسيم المياه » تتوزع مياه الأمطار والثلوج عن يمناها ويسراها وكأن في جبال التاتار هذه خطوطاً لتقسيم الشعوب والعروق في القارة ففي شمالها البولونيون ، وفي جنوبها المجريون والتشيكيون وفي شرقها السلافيون وأخيراً في غربها النمساويون والجرمان .

أعدت النظر في المصور فتأكد لي أن موقع البلد الجغرافي يفرض عليه أحداثه التاريخية : فليس لبولونيا حدود طبيعية إلا هذه الجبال في جنوبها ، وهي سهل منبسط مكشوف في وسطه فارسوفيا يغري الغزاة . وكم عرفت بولونيا من غزاة . لو أنهم أبقوا على كراكوفيا كعاصمة ، وهي تسند ظهرها إلى هذه الجبال لكان لمجرى الأحداث في تاريخ بولونيا وشرقي أوروبا شأن آخر .

* * * * *

من معالم زاكوبانا دير قديم يرتفع ثلاثة آلاف متر عن سطح البحر ، ويعتز أهل المنطقة به قائلين : إن وديان زاكوبانا هي أعمق الأودية في الأرض وإن ديرها أقرب الأديرة إلى السماء !

لفت نظري خلال زيارتي هذا الدير حادث عابر فقد غادرتنا دليلتنا هايدي فجأة إلى ركن من كنيسة الدير فيه تمثال السيدة العذراء السوداء وهي شفيعة بولونيا وركعت عند قدميها ورسمت شارة الصليب في خشوع وابتهال . هذه الفتاة ذات الوجه الهاش الباش والتي تشع حياة انقلبت إلى أشبه ما يكون بتمثال « الرثاء » الشهير للفنان ميكل انجيلو في ملامح

الأسى والنظرات الكسيرة . وما لبثت أن رجعت إلينا وإلى ما درجت عليه ، وسأعود إلى ما وراء هذا الحادث .

* * * * *

كانت سهرة ممتعة في ضاحية من زاكوبانا معلقة على جبال التاتار بين السماء والأرض ، والجبال في سموها وجلالها أنجع ما يكون لراحة النفس، وأدعى للتأمل العميق ترفع المرء عن الدنيا وتقربه من النجوم .

وما سبق لي أن عرفت شيئاً عن جبال التاتار هذه وأشهد أنها لا تقل روعة عن جبال سويسرا وتزيد عليها بأنها ما تزال أقرب إلى الفطرة ما عملت فيها يد الإنسان ومرافق السياحة الجماهيرية .

والمعروف عن البولونيين أنهم يميلون إلى الشراب ، والقول السائد إنه إذا شرب البولوني ثملت الدنيا . كانت هايدي في جلستنا تكرع كأس الفودكا تلو الكأس وكأنها الماء القراح . تجاهلت الأمر ووجهت الحديث بعيداً عنه إلى ما شهدته من صلاتها في كنيسة الدير وقلت إننا في المغرب نتمسك بأهداب الدين وإنه انشرح صدري لما لحظته من تدينها وتقواها وإذا بها تندفع قائلة :

ـــ لست متدينة ولا تقية وإنما هو دافع قومي وطني . لولا التفافنا حول الكنيسة وتمسكنا بالدين لما كان هنالك شيء اسمه بولونيا فما من بلد على وجه الأرض مثل بولونيا توالت عليه الغزوات وتقطعت أوصاله وتقاسمه جيرانه . ومنذ قديم التاريخ والألمان يطيحون بنا من الغرب والروس من الشرق وآخر مرة تقاسموا فيها بولونيا كانت على أيدي آدولف هتلر وجوزيف ستالين فزالت بولونيا من خريطة العالم ثم بعثت من جديد بفضل الدين فقد كانت الكنيسة الحصن والملجأ والملاذ لا للصلوات والترانيم الدينية بل للروح الوطنية والتراث القومي ، ساعد على هذا أن البولونيين يتمسكون بعقيدتهم الكاثوليكية تجاه الألمان وهم بروتستانت انجيليون وتجاه الروس وهم روم أرثوذوكس . والسيدة العذراء السوداء هي شفيعة بولونيا وحاميتها ولذا ركعت عند قدميها في كنيسة الدير فبولونيا بلادي أهواها مهما صرت إليه ومهما ألقاه .

* * * * *

فاجأني حديثها فقلت من فوري :

ـ مهما تلقيه ؟ ومها صرت إليه ؟ مم تشكين وأنت أكثر من شهدت في بولونيا انشراحاً وأسعد بالاً وقد ...

قطعت عليّ قولي بإشارة حاسمة من يدها وقالت :

ـ سهرتنا رائعة فلا تعكرها . الماضي نسيته من ورائي والمستقبل ما تدري وما أدري . دعنا نعيش في جلسة الحاضر .

وتناولت كأس الشراب وكرعت ما فيه وانفجرت تقول :

ـ لا تغرنك مظاهر البشر والإيناس وقد زهقت روحي مما أنا فيه ، أرافق السائحين كل يوم وهم خليط من البلاد المجاورة : الروسي السمج والألماني الثقيل الدم والسويدي المتعجرف ... ما اعتبرني واحد منهم بشراً سوياً وإنما نظروا إليّ كدليلة متكسبة لخدمتهم أو كامرأة مغامرة لنزوتهم . أنت أول من لقيت من بلدك البعيد ويبدو لي أنك ... ماذا أقول ، إنك نسجت من خيط آخر . وما أعرف عن المغرب شيئاً ولكنني أشعر أنك إنسان قريب مني . إسمع .

وانطلقت في حديثها لا يثنيها مطلع الفجر ولا الإصباح .

* * * * *

ـ هايدي هو اسمي في مصلحة السياحة وهو هيّن على الأغراب ، أما اسمي الحق فهو الأميرة هايدونيا وهو اسم جدة لي عاشت في القرن الرابع عشر وجمع زواجها بين أسرتين هما الركنان في تاريخ بولونيا وأمجادها .

جدتي هايدونيا كانت تملك من القرى ما لا عداد لها ففي أوكرانيا وحدها ، وهي اليوم إحدى جمهوريات الاتحاد السوفييتي ، كان لها عشرون قرية بكل ما فيها ومن فيها . أسمعت ؟ بكل من فيها ! وحول تلك القرى غابات طويلة عريضة موقوفة على رحلة للصيد مرة في العام أو العامين لا يجرأ القرويون على الاحتطاب منها .

كانت تقصد في كل سنة إلى روما أو فيينا في عربة مذهبة مفروشة مقاعدها بالفرو الثمين وتجرها ثمانية جياد ويسير في ركابها ثمانون فارساً من النبلاء .

ومالنا وللماضي البعيد ولنعد إلى حفيدتها التي تتحدث إليك : ذكرت لي مربيتي أنه حين ولدت كان القول السائد : ولدت هايدونيا وعلى وجهها حسن الملائكة وفي فمها

ملعقة من الذهب وفي صحبتها « كازيمير » .

* * * * *

— كازيمير هذا قريب لي يكبرني بعامين كان من المقرر منذ طفولتنا أن أكون زوجه . تم عقد الزفاف ، ولما أبلغ العشرين ، في حفل ما عرف مثله الجيل الحاضر في بولونيا وهو آخر حفل من نوعه . ملابسي ليلة العرس صممتها خصيصاً محلات « بالانشين » في باريز ولتصفيف شعري قدم « الكساندرو » معلم الحلاقة من ميلانو ، أما جوقة الموسيقا فقد اختير أعضاؤها من فناني أوبرا فيينا . ولكن أغرب ما في العرس هو العريس !

* * * * *

لم يكن كازيمير يفقه من شؤون الدنيا والآخرة إلا ما يتصل بالخيول . حياته وهمه ومعبوده الحصان . والحق أن هواية الجياد من التقاليد البولونية المتوارثة في الأسر النبيلة ، ولكن كازيمير بالغ فيها . ما عرف جامعة ولا مدرسة وإنما تطوع منذ فتوته في فرقة فرسان « تاننبرغ » نسبة إلى معركة « تاننبرغ » التي انتصر فيها البولونيون على الجرمان التوتون الغزاة في مطلع القرن الخامس عشر . والمعروف أن هذه الفرقة في رجالها وجيادها ، وفي ماضيها وتقاليدها ، لا تدانيها فرقة فرسان في العالم .

ولما توترت الصلات بين بولونيا وألمانيا قبيل الحرب العالمية الأخيرة وهددت حشود النازيين حدود بلادنا كان قول المارشال « ماتسكوفيتش » وزير الدفاع البولوني : ستلقنهم فرقة تاننبرغ درساً لن ينسوه مدى الحياة .

* * * * *

كان درساً بليغاً ولكن على حساب بولونيا . في فجر اليوم الأول من شهر أيلول لعام ١٩٣٩ جاء هجوم الألمان الغادر على حدودنا الغربية فسار إليهم فرسان « تاننبرغ » بالسيوف يخفق فوقهم العلم البولوني وعليه النسر الأبيض يجابهون في شجاعة لا تهاب الموت أرتال المدرعات النازية وعليها الصليب الأسود المعكوف . ولكن ماذا تصنع السيوف تجاه القنابل والنار من وراء الحديد والدروع ؟ ثلاثة آلاف من الفرسان ما بقي منهم على قيد الحياة إلا حوالي أربعمائة وقعوا في الأسر ، وما عاد من الأسر واحد منهم .

وهكذا قضى كازيمير . قضى على صهوة جواده كما كان يتمنى .

* * * * *

لم أحزن على فقد كازيمير . خير له الراحة الأبدية مما صرنا إليه . جاء النظام الشيوعي في أعقاب الجيش الأحمر من ختام الحرب فجردونا من كل شيء . كان علي أن أناضل في سبيل البقاء . وأي بقاء ؟ سكن في عشرة أمتار مربعة في منزل ضيق تشارك فيه ثلاث أسر ، وانتظار ساعات في ذيل طويل من أجل كيلو من اللحم ثلثه شحم وثلثه عظم والباقي عروق . لو عرفت جدتي « هايدونيا » الكبرى ما صارت إليه سليلتها لانتفضت في ضريحها على نهر الفيستولا ، ولكن ذلك الغيم جاء بهذا المطر ، وتلك الإقطاعية أدت إلى هذه الشيوعية .

* * * * *

في صيف كل عام يقام في مدينة « بوزنان » من غربي بولونيا معرض دولي ، ولهذا المعرض الشأن الأكبر في صلات بولونيا التجارية مع العالم . واتفق أن احتاج جناح كندا في المعرض إلى مترجمة فوافقت السلطات المسؤولة على عملي فيه .

كانت الولايات المتحدة الأميركية تقاطع هذا المعرض فلم تكن صلاتها على خير ما يكون مع بولونيا في تلك الأيام من الحرب الباردة وإنما تعمد إلى مراقبة ما يدور في المعرض عن طريق جناح كندا فكان يتردد عليه شاب يدعونه « موبي » يلفت النظر في وجه ذي بشرة جد بيضاء عليها نقط سود وقيل إنه الملحق التجاري في البعثة الأميركية في غرب برلين .

أخذ هذا الشاب يتودد إليّ فدعاني للعشاء في مطعم المعرض ثم أهداني علباً من السجاير الأميركية وبضع زجاجات من الويسكي . لم أجد في هذا بأساً وزجاجة الويسكي في بولونيا يسيل لمرآها اللعاب . هذا وقد تأخذ عليّ إفراطي في الشراب ولك الحق في هذا ولي المعذرة . إنما نعمد ، نحن البولونيين إلى الكأس انعتاقاً من الواقع الذي نحن فيه . لولا هذا الانعتاق السرابي القصير الأمد لكانت حياتنا لا تطاق .

* * * * *

عوداً إلى معرض بوزنان ، ما خطر لي في بال أنني والأميركي « موبي » كنا تحت مراقبة رجال أمن الدولة وأن آلات تصويرهم سجلت حركاتنا وسكناتنا ، فلما انتهى المعرض وعدت إلى فارسوفيا أوقفوني بتهمة الجاسوسية .

حين وجهت إليّ هذه التهمة أخذت أبكي وأضحك . وشر البلية ما يبكي ويضحك . إذا صح أن « موبي » جاسوس فالأكيد أنه غشيم في المصلحة وقد اختارني لمساعدته إذ أنه بين خمسة وثلاثين مليوناً من سكان بولونيا قد أكون الأخيرة التي تصلح للجاسوسية فليس

لي ميل ولا اطلاع على الشؤون العامة لا من قريب ولا من بعيد ، لو سألوني عن اسم رئيس الحكومة لما عرفته وإذا ذكر حلف فارسوفيا ما أدري أهو اتحاد رياضي أو منظمة نقابية . ثم إنه هل يرد أن أتجسس للغريب على بولونيا وهي وطني ومثوى أسلافي ومقدسة لديّ في عقيدة راسخة في الأعماق لا تبدل منها أحداث الحكم .

* * * * *

قادوني إلى سجن « مازارانوفا » واسم هذا السجن وحده يخلع القلب لما اشتهر عنه من التعذيب والارهاب حتى أن الساكنين بقربه يسمعون صرخات المعذبين تنطلق من أقبيته في ظلمات الليل . وسرعان ما تبين لي أن هذا كله وهم وقد يشاع من قبيل الردع وهد الأعصاب . بل علمت أن أصوات المعذبين تصدر عن شريط مسجل مصطنع يذاع قصداً للتخويف .

ومن الإنصاف القول إنهم لم يسيئوا معاملتي في السجن بل كانت حجرتي أوسع من غرفتي في المنزل المشترك وكان الطعام مقبولاً فلا حاجة بي إلى الانتظار في الصفوف الطويلة أمام مخازن التموين . وكان الخفراء والخفيرات يشاركون في جلسات وسهرات جماعية وأحياناً في الغذاء والتدخين والشراب . واتفق أن طبيب السجن الدكتور « تشوفروك » كان كهلاً من المدرسة القديمة فعطف عليّ وهرّب لي بعض المآكل والمشارب . والظاهر أنه أرمل فقد كان يكرر في شيء من الدعابة أنه لو كان أصغر سناً بثلاثين عاماً لعرض عليّ الزواج !

* * * * *

وفي عصر يوم فتحت الحارسة باب حجرتي يرافقها شاب طويل نحيل جداً يتأبط حقيبة تبدو ثقيلة يترنح معها وجلس قبالتي وأخرج من الحقيبة ملفاً ضخماً كأنه كتاب التوراة بسفريها القديم والجديد ، وأخذ يقلب في أوراقه ، ولما سألته عما هو فيه قال إنه مكلف بالدفاع عني من قبيل السخرة وإنه تسلم الملف في الصباح ...

كان هذا المحامي الشاب مضطرباً مرتبكاً وكأنه هو المتهم ، والظاهر أنها أول قضية يكلف بها في محكمة عرفية ، وشعرت أنه لا يملك لي نفعاً ولا ضراً فقلت له حازمة :

ــ اسمع : لست مجرمة لأحتاج إلى دفاع ... ولست خرساء لأحتاج إلى من ينطق عني .

* * * * *

هلّ يوم المحاكمة وحضر الجلسة طبيب السجن الدكتور تشوفروك وكان ينظر إليّ نظرات كلها عطف وتشجيع . وجرت مراسم الجلسة سراعاً ولما بدأ دور الدفاع وقف المحامي الشاب وبدأ بصوت مرتجف يقول :

ـــ إن موكلتي تعترف بأنها مذنبة بحق الشعب والدولة وهي نادمة وتائبة وهي ... ساورني الغضب فانبريت كاللبوة أقاطعه قائلة :

... لست مذنبة ولا نادمة ولا تائبة . إن لي نواقص كثيرة ولكنني ما عرفت الكذب في حياتي ولن أكذب . كل ما في الأمر أن هذا الأميركي الأبله أهداني علباً من السجاير وبضع زجاجات من الويسكي دون وعد مني ولا تعهد لا صراحة ولا تلميحاً . هل في بولونيا مخلوق عاقل يرفض زجاجة ويسكي ؟ لو أنني رفضت لكنت إذاً مذنبة ونادمة وتائبة ، ثم إن ...

كان الدكتور تشوفروك يوالي شاراته لي بالتزام الهدوء وبالاعتدال وانهرت في مقعدي وبكيت فدنا مني الطبيب وأخذني بين ذراعيه ورفعت الجلسة .

* * * * *

عاد القضاة وأدى الحرس التحية ووقفنا جميعاً نستمع . صدر الحكم ببرائتي من تهمة الجاسوسية وبسجني ثلاثة أشهر لاستهلاك مواد مهربة . وأخلي سبيلي على الفور فقد دام توقيفي رهن التحقيق والمحاكمة سبعة أشهر . قضيت عمري مدينة ورأيتني أغادر السجن ولي في ذمة إدارته أربعة أشهر ! من يدري ؟

وضحكت وتناولت كأسها وتابعت تقول :

* * * * *

ـــ لم يكن من الهين إيجاد عمل لي وفي سجلي العدلي ما فيه ولكن الدكتور تشوفروك توسط من أجلي وشفع لي معرفتي اللغة الإنكليزية فعينت بعيداً عن فارسوفيا في مكتب السياحة في كراكوفيا كما ترى .

ما كان لي الخيرة . وها أني أتابع الطواف على معالم كراكوفيا ، حفظتها عن ظهر قلب وعين ، حتى لتلاحقني في المنام ، وأرافق في جولة كل يوم وجوهاً جديدة قادمة من أقطار شتى تغادرني في الغداة وهكذا ... وهكذا ... وإنما أسعى في « زاكويانا » إلى وجه باق

مقيم يعطف ويرحم ويحن عليّ وأسكن إليه : هو وجه السيدة العذراء في كنيسة الدير أقصدها للمؤانسة لا خوفاً ولا طمعاً فأنا راضية بما أنا فيه ، ولعلي أهدأ بالاً من جدتي العظيمة الأميرة « هايدوينا » عاشت تحيط بها الحروب والفتن وسط الحاسدين والمتآمرين ، أما وقد فقدنا كل شيء فلست أخشى شيئاً ولا أبغي أحداً .

* * * * *

روت لي هايدي قصتها وكأنها تروي قصة إحداهن في القرون الخوالي لا تبالي . تطلعت إليها والحق أنها كاللبوة كما قالت . أسلافها صاروا مع أمجادهم نسياً منسياً ولكن دمهم يجري في عروقها . وقد تقع اللبوة في قفص الأسر أو تحت خيمة السيرك ولكنها لا تفقد كبرياءها وفتنتها : فتنة أخاذة فيها ما يرهب وما يجذب معاً . فيها خطر الفتك ونداء الحب .

وفي استجابة عفوية لهذا النداء وجدتني أسألها :

ــ وما هي مشاريعك للمستقبل ؟

ــ للمستقبل ؟ مشاريعي ؟ الواضح أنك حديث العهد بهذا البلد ! لا أتطلع إلى الغد ولا ألتفت إلى الأمس وأعيش يوماً بيوم آخذ ما صفا وأدع ما كدر .

* * * * *

عدت في اليوم التالي إلى فارسوفيا ولقيت بعض صحبي ممن سبق أن رغبوا إلي في زيارة كراكوفيا فسألوني عما لقيت فكان جوابي فوق ما يتوقعون :

ــ سأعود إليها في القريب .

☆ ☆ ☆

كارين بين السويد والخليج

صديق العمر طاهر بن سيدي حنون شرّق في الأرض وغرّب وهكذا يتنقل بأقاصيصه من طشقند في قلب آسيا إلى ريوغراندي في جنوب أميركا . ولكنه حين يتحدث عن السويد تشعر بأن البلد أثير لديه وكأنه يتابع في يقظة الحاضر حلماً معسولاً من عهده في ذلك البلد . حدثني يوماً قال :

— هل تذكر قصة الفتاة السويدية كارين التي وقع في هواها الشاب راشد من أبناء الخليج العربي واستشارني أهلها في زواجها منه فقد اطلعت في زيارتي الأخيرة لاستوكهولم على ما تم لهما ؟

— أذكر هذين الاسمين كارين وراشد ولكن الحق أنه يغيب عني مدار القصة .

— كيف يغيب عنك مدار هذه القصة وقد قلت لي إنك كتبت حولها مقالاً نشرته مجلة أسبوعية ؟ سامحكم الله كتاب هذا الزمان ! مقال الليل يمحوه النهار ! لابأس عليك سأوجز مقدمة القصة لأصل منها إلى الخاتمة .

* * * * *

في شارع « كوماندور » في الحي الأرستقراطي من قلب استوكهولم يقع متجر صاحبي : « فولك الكستروم » لصياغة الحلي والمجوهرات وبيعها . ومحلات « الكستروم وأولاده » هذه موثوقة لدى الأسر السكاندينافية العريقة منذ أجيال . وقد عرفت « فولك » منذ أيامي الأولى في السويد وهو باقة من الظرف والثقافة وطيب العيش . روى لي صاحبي فولك هذا ما جرى له قال :

* * * * *

في ذات يوم من الربيع الفائت دخل علينا ثلاثة رجال تعرف بسيماهم أنهم شرقيون ومن ذوي النعمة وكان أحدهم يتكلم اللغة الإنكليزية بطلاقة وطلب مقابلتي لأمر خاص . استقبلتهم فذكر لي أنهم موفدون من قبل الشيخ عمر يحيى الرابعي من شط الحلوة في الخليج العربي وأنه قادم على شراء كميات من الحلي والمجوهرات وذلك في حدود عشرين مليوناً من الدولارات وأنه جرت اتصالات تمهيدية مع بعض البيوتات الكبرى المعروفة في عالم

المجوهرات فبعثت إليه بمجموعات إلى « افيان لوبان » على بحيرة جنيف حيث يقيم حالياً ، ولكنه لما يبرم فى الأمر رغبة منه في التوثق من المجوهرات المعروضة وأثمانها ، وأنه بعد استقصاءات واستشارات سرية طويلة وقع اختياره عليّ لأكون مستشارة الخبير لفحص المجوهرات ودراسة أثمانها . وهو يرجو أن أقصد إليه في « افيان لوبان » ضيفاً مكرماً لأداء هذه المهمة التي سيثيبني عليها خير الثواب .

* * * * *

دهشت للأمر فمن أين لهذا الشيخ العربي أن يهتدي إليّ في استوكهولم وترددت ، ذلك أن أكثر أرباب بيوتات المجوهرات زملاء وأصدقاء فما لي ولهذه المهمة الحرجة ! فشكرت للزائرين ثقة الشيخ وقلت إن في سويسرا وفي البلاد المحيطة بها عدداً غير قليل من خبراء المجوهرات الموثوقين وإنه من الأيسر اختيار أحدهم وأضفت أن أعمالي لا تسمح لي بغياب طويل . وأصروا ... واعتذرت ... وزادوا إصراراً ورجاءً ... وقبلت أخيراً . وبعد يومين غادرنا استوكهولم بالطائرة إلى جنيف تصحبني سكرتيرتي كارين .

* * * * *

كارين فتاة سويدية تتصل من طرف أمها بصلة نسب بعيدة بصاحبي فولك وتعمل في متجره ، وهي في ريعان شبابها وإشراق جمالها واحدة من حوريات بلاد الشمال . وطالما قلت لفولك مداعباً : إن كارين أحلى جوهرة عرفتها أو ستعرفها محلات « الكستروم وأولاده » في ألف عام !

* * * * *

تابع صاحبي حديثه قال :

قصدنا دارة الشيخ في إفيان لوبان وهي تطل على البحيرة وتحيط بها حديقة كبرى .

واستقبلني الشيخ وكان وقوراً هرماً نحيلاً في ثوبه الأبيض الفضفاض وكأن كل قواه تجمعت في عينيه تشعان ذكاء ودهاء . واقتصر حديثه على الترحيب والمؤانسة ولم يتعرض إلى المهمة ثم أومأ بيده فقادنا أحد رجاله إلى الجناح المخصص لنا وذكر لي أن الأيام الثلاثة الأولى مكرسة للضيافة والاستجمام وإنما تبدأ أعمالي بعدها ... وبرمت لهذه الفترة الإجبارية

التي لا داعي لها ، وأشرقت أسارير كارين لهذه الإجازة غير المنتظرة في هذا الموقع الجميل على البحيرة الوادعة .

* * * * *

وفي صباح اليوم الرابع جيء بالحلي والمجوهرات في الحقائب والصناديق ولما فتحت وشهدت ما فيها تبين لي على الفور باطن الأمر : إن بيوتات المجوهرات العالمية المعروفة : « كارتيه » و « فان كليف » في باريز ، و « بولغاري » في روما ، و « ستيفاني » في نيويورك وجدت في رغبة الثري العربي فرصة نادرة لتصريف المجموعات القديمة « الستوكات » المتراكمة لديها من الحلي والمجوهرات التي بطلت « موضتها » ولا سبيل إلى تصريفها : كميات من الأساور والأقراط والعقود والخواتم ... غاصة بالذهب ومثقلة بالأحجار الكريمة أكثرها « بازاري » كما يقولون وبعيدة عن الذوق الرفيع .

اتضح لي أن مهمتي أشق مما كنت أظن وأن فحص هذه المجموعات وتقدير معادنها وتقييم أحجارها يتطلب أسابيع . ثم إنني وجدت نفسي أمام معضلة وجدانية دقيقة : لقد كانت الأثمان المطلوبة معقولة إجمالاً على أسس قيم المعادن الثمينة والأحجار الكريمة وكلفة الصياغة والربح المشروع ، ولكن هل لي أن أتبنى هذه الأسعار وأنا عليم أنه ليس من راغب في شرائها على هذه الأسس وأنه لا بد لا مكان بيعها في أسواق أوروبا وأميركا من فكها وصياغتها من جديد في أشكال ونماذج حديثة ؟ وتعلم أنه لو اتصلت بأرباب البيوتات العارضة لعمدوا على الفور إلى تقديم أجر وساطة « كومسيون » متعارف عليه في هذه الأوساط ، ولكن معاذ الله ، وتأكد أنني ما قبلت هذه المهمة حباً في الأجر الوفير والمقام المريح وإنما اعتزازاً بثقة قوم من بلد عرفوني بالاسم والسمعة ولجأوا إلي آمنين مطمئنين .

* * * * *

واتفق أنني كنت أتجول ذات يوم بصحبة كارين في الحديقة فشهدنا عربة ذات عجلتين تقبل علينا ويدفعها عبد أسود عملاق فلما اقتربنا رأينا شاباً وسيماً قاعداً فيها رفع يده بالسلام وأشرق وجهه بابتسامة عريضة فيها مزيج من البهجة والأسى . وعلمنا من ثم أن هذا الشاب ابن مضيفنا الشيخ وأنه مصاب بعاهة في ساقيه وإنما قصد أبوه إلى « افيان لوبان » ليعنى بابنه أشهر الأطباء وليؤمن له قائمة من التمارين والتدليكات يرجو له من ورائها الشفاء .

وفي صبيحة اليوم التالي قدم هذا الشاب في عربته إلى جناحنا واستأذن في التفرج على

أعمالنا . كان من الواضح أن ما دفع به إلينا لم يكن الفرجة على المجوهرات ... ولحظت أنه كان ينظر إلى كارين خلسة ، ويشهد الله أنه كان في غاية الحشمة والأدب . واضطربت كارين أول الأمر ... وأخذ الشاب يتردد علينا كل يوم ... وألفت كارين مجلسه ... وأخذت تبادله النظرات ... والابتسامات ... وأحرجت وتمنيت لو أنهي مهمتي في أقرب ما يكون .

* * * * *

وأخيراً أنجزت المهمة وقصدت مضيفي الشيخ في مجلسه للوداع فأومأ بيده فتوارى رجال الحاشية من حوله جميعاً إلا الرجل الذي قدم إلينا في استوكهولم ويتحدث الإنكليزية . وطال الصمت وبدا لي أن الشيخ متمهل محرج فيما هو قادم عليه ، وأخيراً توجه إليّ بخطاب أثرت بي نبراته وددت لو أدرك أصله العربي ، قال ما معناه :

إن لك الفضل في أداء مهمتك على خير وجه ، ولا غرابة فقد أثنى العارفون عليك الثناء كله يرون فيك فوق الخبير الموثوق إنساناً نبيلاً ... وإنني قاصدك الآن في مهمة أرفع شأناً وتتصل بأعز الناس لدي أعني بابني راشد . إن ابني يرغب في أن تكون السيدة الفاضلة التي ترافقك زوجاً حلالاً له .... وقد رأيت حاله وما ألم به ... ويؤكد الأطباء أن شفاءه قريب ... وأن لقاء هذه السيدة رفع من معنوياته ويساعد على شفائه ... وهو وحيدي ... وإنني لأفديه بروحي وبكل ما أملك من فضل الله ، وما شهدت من الحلي والمجوهرات ليس إلا القليل من كثير من نعم الله عليّ ... وما أترقب الجواب وأنت في ضيافتنا ... وستعودان بالسلامة إلى بلدكما وتتشاوران في الأمر ... وتقرران ما فيه الخير إن شاء الله ... وما أراده الله فلا دافع له ... وإذا أراد الله أمراً هيأ أسبابه .

* * * * *

عدت وكارين إلى استوكهولم ولما قصصت عليها أمر المهمة الجديدة التي كلفت بها لم تفاجأ فقد أدركت أن الشاب وقع في هواها وأنه طالب يدها ولكنها في حيرة لا تدري ما تفعل .

إنها تشعر بعطف نحو الشاب وتود لو تساعده على الشفاء في حياة سوية وعيش سعيد ولكنه عطف ما بلغ منزلة الحب والتضحية .

إن الحياة الباذخة الثرية تستهويها ولكن لا يذهب بها الهوى إلى مغامرة لا تدري مصيرها ، وهي تلح عليّ في أن أنصحها في أمرها وأنها محرجة فهدايا الشاب تتوالى ... وقد أخبرتها

أنك قادم علينا في هذا الصيف وأنت أدرى ببني قومك وبأحوال السويد وأهلها وخير من يستشار في هذا الموضوع . والآن قل لي ناشدتك الله هل ترى أن تستجيب كارين لرغبة راشد أو أن تعتذر نهائياً وتقنع بما هي فيه ؟

* * * * *

قص عليّ صاحبي فولك حكايته هذه في متجره الأنيق في شارع « كوماندور » في استوكهولم ، وأقبلت علينا كارين في لهفة وقد اتسعت عيناها الزرقاوان تنتظر ما أشير به .

وددت لو أن أقطع لها برأي يخرجها من حيرتها في أمر قرانها ولكن أنّى لي ذلك ... وأنا نفسي في حيرة من أمري ... منذ عشرين عاماً !

* * * * *

هذا موجز الحكاية كما جاءت في مقالك في المجلة الأسبوعية ، وإنما يهدف حديث اليوم إلى ما جرى بعدها وخاتمتها مما اطلعت عليه مؤخراً .

بعد حوالي عام وقد كنت في موسكو تلقيت بطاقة فاخرة الورق أنيقة الطبع فيها دعوة للمشاركة في حفل قران راشد وكارين يقام في دارة الشيخ عمر يحيى الرابعي في « افيان لوبان » ، وألحق بالدعوة هدية ظريفة : زوج من أزرار كمي القميص من الذهب نقش على أحدهما حرف الراء وعلى الآخر حرف الكاف . خير إن شاء الله ... وأبرقت هنيئاً لكارين براشد وهنيئاً لراشد بكارين شاكراً لهدية طوقت معصميّ بالراء والكاف .

* * * * *

انقضت أربعة أعوام كنت طوالها فيما وراء البحار وانقطعت عني أخبار العريسين فلما عدت إلى أوروبا وقصدت زيارة السويد خطرا في بالي وقلت في نفسي إنهما ولا ريب في شط الحلوة من الخليج ينجبان البنات والبنين .

أول ما أعمد إليه بعيد وصولي إلى استوكهولم أن أزور صديقي « فولك » في متجره أطلع على أخبار الأصحاب وأحوال البلد عامة وألقي لديه بعض الأصدقاء ، ذلك أن متجر « الكستروم وأولاده » لا يقتصر على شؤون المجوهرات فحسب بل هو شبه ناد خاص يلتقي ويتواعد فيه أصدقاء « فولك » وهم كثيرون ، وفولك في الميدان الاجتماعي ناشط ومحبوب .

وصلت إلى المتجر وإذ بها مفاجأة : كارين جالسة في مكتبها منصرفة إلى أعمالها كما

عهدتها من قبل . ما زالت في روعة جمالها ولكن الإشراقة خبت بعض الشيء وبدا لي أنها بعد فراق خمسة أعوام كبرت خمسة عشر عاماً . الواضح أن الزيجة كانت قصيرة العمر فعادت كارين من الخليج إلى السويد . لم تفاتحني بشيء ولا سألتها . كان هذا خيراً فليس لي احراجها ولا تفتيق الجراح .

وفي جلسة هادئة في منزل « فولك » روى لي صاحبي ما جرى . قال :

* * * * *

منذ تلقيت رسائل كارين الأولى من شط الحلوة بدا لي أن الأمور لا تسير على ما يرام ولكن ما خطر في بالي أنه سيكون الفراق بعد أقل من عامين ! والعجيب أنه لم يكن من نزاع ولا خلاف بين راشد وكارين . مالت كارين إلى راشد ثم أحبته وراشد يهواها من قبل ومن بعد ، وأكثر من هذا طالما كتبت كارين تثني على راشد وتمجد فيه الرجل الأمثل شهامة ومروءة ونبلاً . ليست المشكلة بين راشد وكارين بل بين بلد راشد وبلد كارين .

وفي الحديث عن البلدين يذهب الفكر إلى مابينهما من تباين في المناخ واللغة ووسائل العيش وما إلى ذلك ... لم يكن لكل هذا دخل على الإطلاق فقد تمتعت كارين بالطقس الحار وبالشمس الساطعة وهي التي عانت من الصقيع والقتام في بلدها ما عانت . ثم إن كثيرين من حولها في شط الحلوة كانوا يتكلمون باللغة الإنكليزية وكارين تجيدها . أما وسائل العيش فقد وجدت كارين من الترف والنعيم ما لم تكن تحلم به . هنالك عوامل نفسية واجتماعية تضافرت فأدت إلى الفراق . ولن أطيل في شرحها وأنت أدرى بأحوال البلدين .

* * * * *

بدأت المشكلة منذ اليوم الأول . كانت كارين تتوقع أن ترى في شط الحلوة طابع الشرق كما يتصوره أهل الشمال ، قبابه وهلاله ، أبهائه وأحواضه ، خيامه وجياده ... وإذا بها تلقى صدمة عنيفة لدى وصولها فقد طغت الأساليب الغربية الحديثة على مرافق الحياة ، دارات سكن مكيفة الهواء تحسب أنها نقلت من حي الأثرياء ونجوم السينما في لوس أنجلوس إلى الخليج ، وأجهزة كهربائية الكترونية للشاردة والواردة وأغذية في معلبات من صنع كاليفورنيا وألبسة من لندن للرجال ومن باريز للسيدات حتى الأحذية استوردت من إيطاليا !

كانت كارين في مقامها في السويد ، وهي بلد الغابات والبحيرات ، تلجأ إلى الريف

هرباً من زيف المدينة في استوكهولم وإذا بها في موطنها الجديد تجد أن العاصمة السويدية متخلفة عن شط الحلوة في هذا الميدان .

قد تكون هذه الصدمة عابرة لا خطر لها وتألفها مع الأيام ولكن عقبها أمر جوهري .

* * * * *

كان من المتفق عليه ، بل الشرط الأساسي قبل عقد القران ، أن تكون كارين الزوجة الوحيدة فلا يعمد راشد إلى تعدد الزوجات كما تتيح له شريعة بلاده . والحق أن راشد أوفى بالعهد وعلى حد تعبير كارين ، أوفى بنص العهد لا بروحه ، فقد كانت زوجته الوحيدة شرعاً ، ولكنه لم يكن لها وحدها فعلاً . كان لها وحدها في فترة من أواخر الليل وما عداها فهو في مجتمع الرجال ، في جلسات وسهرات ، في نوادي وحفلات وكلها محرمة على النساء .

أرادت كارين أن يكون راشد لها وحدها في كل شيء قلباً وروحاً وارتباطاً وثيقاً دائماً في العيش ليله ونهاره أي شريك الحياة بالمعنى الصحيح الكامل وإذا بالمشاركة تكاد تقتصر على الصلات العاطفية والجنسية .

* * * * *

تقبلت كارين هذا الوضع فقد كانت تعرف من قبل أن المرأة في تلك الأقطار معزولة عن المجتمع مقيدة الحريات ولا ذنب لراشد في هذا ولا قدرة له عليه ، فحاولت أن توجه نشاطها وتنفق فراغ وقتها في تدبر الشؤون الداخلية كربة منزل . وإذا بها يحال دونها في أساليب ناعمة مفادها : أن مقامها فوق هذا وأن تحت إمرتها من الخدم والحشم الكثيرين ، تأمر فتطاع وتطلب فتجاب ، وكل ما عليها أن تنصرف إلى الزينة والتجميل وجر الذيول ، وكأنهم أرادوها تحفة من الحسن في قفص ذهبي .

* * * * *

حاولت كارين مرة أخرى أن تتقبل هذه الحال وقد كان متوقعاً قليلاً أو كثيراً فما كان وضع المرأة في ذلك العالم المتخلف الطاغي بالثراء سراً مجهولاً ، ولكنها أخذت تشعر بارتباك نفسي يزداد يوماً بعد يوم إذ بدا لها أنها تحيا حياة مشدودة في اتجاهين متعاكسين ، أو لنقل تعيش في مجتمع ذي وجهين متناقضين : في الضمائر أعراف وتقاليد وقيود من قديم الزمان ،

وفي الأمائر وسائل عيش من أحدث ما عرف القرن العشرون . الباطن تراث من الشرق بال قديم ، والظاهر طلاء من الغرب مستعار جديد .

* * * * *

ولا بد مما ليس منه بد وكان أن عزمت كارين على الفراق . ومن الإنصاف القول إنها عملت كل ما في وسعها قبيل الفراق لإقناع راشد بأن يغادر شط الحلوة ليعيشا عيشاً سوياً في بقعة من ديار الغرب ، ولكنه أبى مؤكداً أن في شط الحلوة جذوره وكيانه وفيه محياه ومماته . وأرى أنه في هذا على حق .

واليوم تقضي كارين الساعات من كل يوم تستعيد ما مر عليها وتود لو أن يعود إليها الرجل الذي يهواها ليقيما معاً في الإطار الذي تهواه . حلم . .وفي هذا الحلم تعيش !

* * * * *

بهذا ختم صاحبي « فولك » حديثه ثم استدرك ضاحكاً وأضاف :

ـــ سامحك الله ! استشرناك منذ البداية حول هذا القران فتخلصت من الجواب في دعابة . أنتم الدبلوماسيين تداورون وتدورون في أساليب بارعة فلا تصدرون عن رأي حازم . وبعد فلعلك على حق فما لأحد سوى راشد وكارين أن يجزم في هذا الأمر ذلك أن زواج كارين من راشد يخص راشد وكارين ، ومهما يكن فهذا ما شاءت لهما الحياة ، أو كما تقولون « مكتوب » .

* * * * *

توقف صديق العمر طاهر عند هذا فسألته :

ـــ وماذا كان ردك على صاحبك « فولك » ؟

ـــ ردي ؟ لا مجال للرد فقد روى لي الحكاية وانتهت .

ـــ بودي لو أنك وضعت النقاط على الحروف فلا تظل كارين وأهل السويد معها في جهالة من حقيقة الأمور . يبدو لي أن كارين مع إعجابي بجمالها من بعيد ؛ قد شطت في رغباتها . تبغي الرجل الذي يهواها في الإطار الذي تهواه ! يا سلام ! لو أن كارين أخلصت في حبها لراشد كما أخلص هو في حبها لما غادرت شط الحلوة ، ولو أنها تمسكت بأرض

أجدادها كما تمسك هو لما غادرت السويد ، ولو أنها عرفت حق البلد الذي أكرمها واحتضنها لتغاضت عما تأخذ عليه .

وبعد فهل على الشرق أن يظل متخلفاً حتى يكون كما يتصوره أهل الشمال ؟

وهل عليه أن يبدو زرياً حتى يعجب هؤلاء الأغراب ؟

ولمَ ينعم أهل لوس أنجلوس بالهواء المكيف ويحرم منه جماعة شط الحلوة ؟

ومتى كانت أصالة الشرق ملزمة بالخيام والبعير فلا تجيز له الدارات والطائرات ؟

* * * * *

عجب صديقي طاهر لاندفاعي بهذه « المرافعة » ولكنني استأنفت أقول :

— أما وضع المرأة في شط الحلوة فقد أخذ الغرب بالظاهر وليتك أوضحت لصاحبك السويدي باطن الواقع : صحيح أنه لما تزل المرأة في بعض أقطار الشرق معزولة عن المجتمع مقيدة الحريات ولكنها تحاط بمزيد من الرعاية والحرمة والإعزاز مما لا تعرف مثيله أخواتها في بلدان كثيرة . وإذا نالت المرأة في الغرب حريتها وحقوقها في مساواة الرجل فقد خسرت لقاء هذا في العمل وفي كسب العيش ما هو الأثمن والأحلى من صفات بنات حواء أعني الأنوثة والخفر والبشر والدلال كما فقدت إلى حد كبيرة هناء الحياة المنزلية المستقرة الوادعة وسعادة التزام البنين والبنات وإنك لتعلم أن غير قليل من السيدات الواعيات في الغرب يدركن اليوم أن الصفقة ، صفقة المساواة بالرجل ، كانت خاسرة وأنهن يدفعن الثمن غالياً في واقع الحياة .

* * * * *

أثارني هذا الحديث ولعلي وجدت فيه تبريراً لما أنا فيه فأضفت :

— أما الزواج من الأجنبيات فهو أمر شائك غير محمود العواقب دوماً ، وإني به عليم ولو لم أعمد إلى الزواج : إن الاقتران بفتاة من الغرب لتعيش في الشرق أشبه بمن يقطف وردة من حديقة في بلد غريب ثم يضعها في إناء فيه ماء وينقلها إلى وطنه فلا تلبث أن تذبل ويذهب ريحها . لكل وردة ما خلقت له تربةً ومناخاً ووسطاً فلا يستقيم أمرها في ظروف أخرى لا تصلح لها . وفي ملكوت الله آيات للمؤمنين ولكن لكل آية موضعها تلتزمه وتسبح فيه بحمده : هنالك غابات الصنوبر تحت غلالات الثلوج في بلاد الشمال ، وأزهار « أديل »

البيضاء المتوارية في قمم جبال الألب ، وواحات النخيل تعمرها التيجان في جزيرة العرب ، ودوحات « التومويا » الباسقة في أدغال الأمازون .... كلّ عرف مقره وسكن إليه وطاب له العيش فيه ، فلا ينقلن أحد الورود بعيداً عن موطنها . خير أن تتمتع بها في ديارها منظراً وعبيراً ...

أطلت عليك ولن أزيد وإنما يحضرني بيتان من الشعر لو أنك ذكرتهما حين استشاروك في أمر الزواج في البداية لما كانت هذه المشكلة كلها : ألف وخمسمائة سنة قبل ولادة راشد وكارين تساءل شاعرنا :

أيها المقــرن الثريــا سهيــلاً عمــرك الله كيــف يقترنـــان
فالثريــا شاميــة إذ تبــدت وسهيـــل إذا أطـــل يماني

* * * * *

ضحك صديقي طاهر بن سيدي حنون لهذا الدفاع المرتجل وخاتمته الشعرية ثم تطلع إليّ وقال :

ــ هوّن عليك ! ليس الأمر من الخطورة كما تتوهم فلا تذهب بخيالك من ورود الأرض إلى ثريا السماء فإنما تزداد حيرة فلا تعمد إلى مواطنة شرقية ولا إلى أجنبية غربية . اسمع مني : كارين جوهرة وقد نضجت خلقاً وخُلقاً بعد ما جرى لها في الخليج ، وهي كما قالت تحلم برجل من الشرق يعيش في الغرب ، وأنت بيت الغرض . ما قولك بكارين ؟

☆ ☆ ☆

نادي الماسة الزرقاء في لاهاي

صديق العمر طاهر بن سيدي حنون طالما تسائلت وهو يروي لي أقاصيصه : أتراها ذكريات من ماضي حياته أم حكايا من بنات خياله ؟ حدثني يوماً قال :

تبدأ القصة في لاهاي عاصمة هولندا ، وهولندا بلد طواحين الهواء والمراعي الخضر والبقرات السمان . بلاد منخفضة تدلف إليها السحب والأمطار قادمة من القطب ومن المحيط لا تلقى في طريقها إلى القارة عبرها عائقاً ولا جبلاً . والبلد الواطىء يركبه الضباب وتعصف فيه الرياح . والبلاد والبشر في هذا سواء .

أما لاهاي العاصمة فهي أهدأ عواصم الدنيا ، هدوء أستميح القول إنه يشارف الجمود . والواقع أن الشبيبة الناشطة نزحت عنها إلى امستردام المدينة اللاهية العابثة فبقي في لاهاي الكهول والشيوخ حتى أن الناقوس التاريخي في كنيستها الكبرى يدعى ناقوس الشيخ يعقوب ودقاته الخافتة أدعى إلى النوم منها إلى الإيقاظ !

* * * * *

في هذه العاصمة يعيش القوم ثلاثمائة يوماً وليلة من كل عام تحت لحف من السحب والضباب فإذا ما حل الصيف وطلعت الشمس يوماً هرعوا كأسراب النحل في نفير عام إلى شاطىء قريب على بحر الشمال ينتشرون فوق رماله شبه عراة يتلقفون كالخشب المسندة كل شعاع من كوكب النهار .

واسم هذا الشاطىء غريب جدير بالذكر إذ لا يحسن لفظه إلا أهله والأقربون فهو عويص ثقيل أورده لتبسيط تلاوته في أربعة مقاطع منفصلة : سخي في نين غين ، مقاطع جمعت إلى رطانة اللغة الهولندية جرس اللغة الصينية ! ويروى أنه في إحدى الحروب الأهلية التي دارت بالقرب من لاهاي في القرن السابع عشر كانوا يطلبون من الأسير أن يلفظ اسم هذا الشاطىء فإذا أحسن لفظه توثقوا أنه منهم وخلوا سبيله وإلا قتلوه .

* * * * *

ينبسط هذا الشاطىء طويلاً عريضاً وهو مباح بالمجان لعباد الله جميعاً إلا رقعة في وسطه تصونها الأسلاك الشائكة في أضلاعها الثلاثة ويحد البحر ضلعها الرابع نصبت عليها لوحة

كبيرة جاء فيها : « إن هذه الرقعة وقف على أعضاء نادي الماسة الزرقاء وأسرهم وضيوفهم » والسلام على من تلا فوعى !

والظريف أن هذا الوقف يشمل مياه الرقعة « الإقليمية » كما يقولون في القانون الدولي ، فلا يخوض عباب البحر تجاهها إنسان لا ينتسب إلى جماعة الماسة الزرقاء .

نادي الماسة الزرقاء ما أظن أن له في الدنيا مثيلاً : عدد أعضائه ثلاثة وثلاثون لا ينقص ولا يزيد وهو قصر على الرجال البالغي الثراء ممن تجاوزوا الخمسين من العمر . قيل لي إنه أسس هذا النادي في أواخر القرن الماضي تاجر الماس بالجملة يملك مصنعاً لتقطيع أحجار الماس الخامية في امستردام وإنه اشترط لعضوية النادي أن يكون في حوزة المرشح له ماسة زرقاء لا يقل وزنها عن سبعة قراريط .

وأمر هذا النادي عجيب إذ يفتح أبوابه قبيل منتصف الليل ويغلق مع مطلع الفجر ، لا فسق ولا فحشاء ، ولا إدماناً على شراب أو مخدر ، وإنما يقصده الأعضاء لقضاء فترة من الصفا والنشوة بعيداً عن جو المنزل الرتيب والأزواج والأولاد ، وفي صحبة مضيفات مختارات من أجمل فتيات هولندا وأرشقهن قواماً يختلن في أزياء كاسية عارية وكأنهن الطبعة الحديثة لصور النساء المثيرات في لوحات الفنان الفلمندي الشهير « روبنز » يتمتع هؤلاء الكهول بمعشرهن في جو من الموسيقا الوادعة ودخان سيجار هافانا الفاخر وجرعات من الكونياك الأصيل .

* * * * *

أعضاء هذا النادي ، وأمثالهم من غرب أوروبا ، جيل كان له مع أحداث الزمان حساب طويل : نشأوا في إبان الأزمة الاقتصادية الخانقة في الثلاثينيات فعرفوا في عهدي الطفولة والفتوة الضيق والحرمان ، ثم جاءت الحرب العالمية الأخيرة فعصفت بشبابهم رياح القتال والأسر والاعتقال ، ثم تلتها أعقاب الحرب فكافحوا وسط الأنقاض والدمار ، فلما جاء الفرج وأقبل الرخاء على غرب أوروبا وجمعوا الثروات وجدوا أن زهرة العمر ولت فأسرعوا إلى التعويض عما فاتهم في ساعات من المتعة بعيدين عن زوجات فرضتهن ظروف ما بعد الحرب وألفوهن كثيراً ، زوجات تقدم بهن العمر وتخلفن عن ركب الرعابيب الناشئات .

* * * * *

من أعضاء نادي الماسة الزرقاء ، صديق لي يدعى « موريس فان هازن » وهو رجل عصامي جمع ثروة طائلة من وراء امتياز حصل عليه لاستيراد سماد « الفوسفات » من المغرب إلى هولندا . زرت هذا النادي صحبته ذات ليلة فلم أنشرح إليه ، ولست من هواة نوادي الليل وأنا إلى فضاء الله الرحب في آية النهار أميل ، فأشار علي صديقي موريس بأن أقصد مسبح النادي في تلك الرقعة الحرام من الشاطىء ، وزودني لهذا ببطاقة خاصة كضيف على النادي مؤكداً أن المياه حول المسبح صافية رائعة لا يغشاها الخليط من الناس .

* * * * *

أخذت أتردد على مسبح النادي بين الحين والحين . لفت نظري في هذا المسبح أنه وحده على طول الشاطىء خلو من الرجال وإنما ترتع فيه زوجاتهم وكأن هنالك اتفاقاً ضمنياً على أن يكون المسبح للنساء في النهار والنادي للرجال في الليل . كل في شأن !

وفي زياراتي للمسبح ألفت وجوه النسوة فيه وكلهن في الخريف من العمر تراكمت على أجسادهن مخلفات الدسم والرخاء وأبرز لباس الاستحمام منها ما أفسد الدهر .

* * * * *

قصدت هذا المسبح يوماً فرأيت فيه وجهاً جديداً لا عهد للمسبح بمثله . وجه صبوح لفتاة في ربيع العمر مستلقية على الرمل في ركن منعزل اقتصر كساؤها على الحد الأدنى المباح في رقعتين حول صدرها وفي وسطها ، تداعب أشعة الشمس منها بشرة في حسن زهر التفاح وشعراً منسدلاً في بريق الذهب . ولا أكتم أنه أخذت بي رعشة وبدا لي أن حلم العمر يمثل في هذه المخلوقة ساقتني إليها الأقدار وكأنها ، كما جاء في الأسطورة ، عروس البحر حملتها الأمواج إلى الشاطىء .

توجهت إليها ، والقوم في هذا المسبح أسرة كبيرة واحدة يفرض التعارف بين أعضائها ، وحييتها فارتبكت وهرعت إلى إلقاء غلالة على نحرها ثم ردت التحية وقد ازدادت وجنتاها حمرة وقالت :

— أخشى أيها السيد أنه التبس الأمر عليك ... وأنني لست من تقصد .

— كيف يلتبس الأمر عليّ وأنت فريدة بين أهل المسبح ؟

— ولكنني لست من أهل المسبح ولا من جماعة نادي الماسة الزرقاء .

ـ سواء لدي نادي الماسة الزرقاء أو الحمراء ... ثم إنني بدوري لست من هذا النادي ولا إليه ...

وهمت بلملمة متاعها للانصراف فاستوقفتها وشعرنا أن عيون السيدات في المسبح ترمقنا شرراً من بعيد وأنه لا سبيل لمتابعة الحوار فرغبت إليها في اللقاء في مكان آخر فترددت وهي تمسك بقرطين ذهبيين صغيرين تحاول تثبيتهما في شحمتي أذنيها فأخذت أحد القرطين وقلت :

ـ أحتفظ بهذا القرط رهناً للقائنا ... وتحتفظين بالآخر إشارة لتعارفنا .

ـ ألم أقل لك إن الأمر التبس عليك ؟ إنهما من الذهب الزائف ...

ـ السر في الأذنين ... لا في القرطين .

وضحكنا وتواعدنا على اللقاء في عصر اليوم التالي قرب ركن الانقاذ والاسعاف على الشاطىء بعيداً عن رقعة المسبح الحرام وأهله .

* * * * *

لم أكن بحاجة إلى القرط للتعرف إليها في الغداة فقد كانت صورتها منذ الأمس لا تبرح خاطري . مدت يدها مصافحة وعرفت باسمها : « إليانور شولبوام » وبادرتني من فورها :

ـ وددت البارحة أن أجنبك خيبة الأمل وضياع الوقت ولكنك أصررت على لقائي ولا طائلة من هذا اللقاء فلست كما سبق قولي ، من جماعة المسبح وإنما أنا عاملة في نادي الماسة الزرقاء كساقية في مقصفه ، واتفق أن سيدات المسبح احتفلن في الأمس بعيد ميلاد إحداهن فرغب إلي مدير النادي أن أساعد في تدبر مقصف مرتجل في المسبح . وبعد انتهاء عملي خطر لي أن أستحم وأستجم على الشاطىء فلما ظهرت بلباس الاستجمام أخذن يحدجنني بنظرات تقدح شرراً ولهباً ولسان حالهن كيف تقدم فتاة مثلي على الخوض في مياه مسبحهن وهن يحسبن أنهن جبلن من طينة لا تدانيها طينة عامة الناس . وحدث أن قدمت إليّ فازددن حنقاً وغيظاً فكيف تجرأ هذه الطفيلية النكرة على التحدث إلى أحد ضيوفهن وهي خادمة في النادي ؟

ـ يبدو أنك أنت التي التبس الأمر عليك يا إليانور ؟ لا جبلة ولا طينة بل حسد وغيرة . إنما يغيظ قلوبهن أنه يشهدن ما أنت عليه وما هن فيه تزيد محاسنك إبرازاً لمعائبهن ،

وددن لو يفتدين بماس الأرض كله أزرقه وأحمره وأبيضه لكي يتحررن من كتل وطيات وأرداف تثقل أجسادهن وليكن في قوامك المثالي ... ! وبعد فما لنا ولهن ولست من جماعتهن وإنما أقصد المسبح بين الحين والحين كضيف عابر . وإني لأتساءل ما الذي دفع بك إلى هذا النادي العجيب ؟

— وإني لأتساءل بدوري صبح مساء كيف دفعتني الأقدار إلى العمل كساقية في هذا النادي ؟ ما كان هذا ليخطر لأحد في بال وما كان لي فيه خيرة .

* * * * *

ما كان لها الخيرة فعلاً في مسيرة حياتها كما روتها لي . قالت :

— نشأت في قرية صغيرة تدعى « كورهافن » في شمال هولندا بالقرب من بحر الشمال حيث تتوالى المضائق والخلجان وتتداخل الجداول وألسنة البحر لا تعرف فيها حدوداً واضحة بين البر والبحر وبين الماء العذب والماء الأجاج . والظريف أن قريتنا تقوم على رقعة من الأرض كانت من قاع البحر فانتزعتها يد الإنسان فضخت ماء البحر بعد أن سورتها بجدران ثم أزالت ملوحة تربتها وصارت صالحة للزراعة والسكن . والقول السائد في هولندا إن سكان هذه القرى المنخفضة هم أربط الناس جأشاً يزمجر البحر من فوقهم ليل نهار وهم يسعون في مناكب العيش من تحت سويته لا يعبأون .

كانت قريتنا والأراضي من حولها ملكاً لآل « فان هايشلباخ » منذ أجيال ، وكان أبي ، مثل أجداده من قبله ، يعمل كفلاح لدى هؤلاء السادة . كنا قانعين بما نحن فيه ولكن حدث في ساعة غفلة أن بتر محرك زراعي ذراع أبي اليسرى وتعذر عليه متابعة العمل . وكان آل هايشلباخ يملكون غابات واسعة في بلجيكا على سفوح جبال الآردين بالقرب من قرية « هامولارين » منذ كانت بلجيكا تابعة للتاج الهولندي قبل استقلالها ، وكان في هذه الغابات دارة يقصدون إليها في رحلات الصيد من خريف كل عام ، وبالقرب من هذه الدارة جناح للأتباع ، فرأى الكونت فان هايشلباخ أن نغادر لهذا الجناح فيعمل أبي هنالك حارساً للدارة ورقيباً على الغابات .

* * * * *

في هذه الغابات قضيت أحلى سني شبابي أجول بين أشجارها وجداولها ولي من الطيور خير الرفاق .

– إليانور ! إنك ظبية الغاب ! في أدبنا القديم يتغزلون بظبية الغاب وقد حفظت أبياتاً من الشعر حولها وما كنت أدري ما ظبية الغاب ... حتى لقيتك !

– ظبية الغاب ! صورة جميلة ! ولكن لم يكن مقام ظبيتك في تلك الغابات يسيراً : كنا فيها غرباء ينظر إلينا كدخلاء فلم نكن نلقى من حولنا تراحماً ولا حسن جوار . ذلك أن هذه الغابات تقع في مقاطعة « فالونيا » من جنوب بلجيكا وأهلها أقرب إلى الإفرنسيين لغة وطباعاً وعنجهية والمعروف أنهم لا يطيقون مواطنيهم الفلمنديين في شمال بلجيكا وهؤلاء هم إلى الهولنديين أقرب لغة وطباعاً وسماجة ! فكيف يرحبون بالقادمين إليهم من شمال هولندا ؟ ثم إنهم لا يغفرون لآل هايشلباخ امتلاك هذه الغابات في عقر دارهم ويرون في هذا، وفي وجودنا فيها ، امتداداً لعهد الحكم الهولندي الفائت . وزاد في نقمة أهل القرية أن أبي كان شديد الرقابة على الغابات وقد كانوا من قبل يتسللون إليها للصيد ولجمع الكستناء والحطب .

* * * * *

في هذا الجو القاتم من حولنا كان يتراءى لنا قبس من العطف والحنان مصدره الأب « برنارد » راعي الكنيسة الكاثوليكية في « هامولارين » . كنيسة فقيرة كل ما فيها تمثال للسيد المسيح صنعه أهل القرية من خشب السنديان . كان الأب برنارد طاعناً في السن يتوج رأسه شعر أبيض جليل ولكنه كان نشيطاً منتصب القامة تتلألأ أسارير العافية على وجهه . كان قلبه العامر بالإيمان لا يفرق بين الفلمنديين من الشمال والفالونيين من الجنوب فكان يتحدى بني قومه فيزورنا ويدعونا لزيارته رغم أننا من الطائفة الإنجيلية .

ولهذا الراهب أفضال عليّ لا أنساها فقد غلبت عليه عاطفة الأبوة ، ولو أنه يرتدي ثياب الكنهوت فاعتبرني كأبنة له ، ولحظ أنني أتجول في الغابات ولا أقصد مدرسة القرية لجهلي اللغة الإفرنسية وهي لغة التعليم فيها فطلب إليّ أن أقدم إليه كل يوم لأتعلم على يديه .

كانت دروسه فريدة في بابها لا تعرف منهاجاً معيناً ولا ميقاتاً ملزماً فكان يختار لي نصاً من كتاب ويطلب إلي أن أتلوه مرة ومرات ثم يحدثني عما جاء فيه فيستطرد من آيات الكتاب المقدس إلى أحداث التاريخ ومن ملكوت الأفلاك والنجوم إلى دخائل النفس وسيرة البشر .... والراجح أن الأب برنارد كان يعاني من وحدته الفكرية فكأنه يتحدث من فوقي إلى جماعة من المثقفين الراشدين .

ــ أرى أن ظبية الغاب انقلبت أميرة يعنى بتعليمها مربي خاص وفق أعراف بنات الملوك !

وضحكنا ثم توقفت فجأة في ضحكها وظننت أني أعبث بها فتابعت تقول :

* * * * *

ــ لا تهزأ بي وأنا التي ما حصلت على شهادة الدراسة الإبتدائية ولكن الحق أنني أفدت من دروس الأب برنارد كثيراً وقد سادها الانطلاق والارتجال والشمول مما لا يتيسر في التعليم المدرسي المقنن الرتيب أذكر لك من قبيل المثال أني أدين له بالتعرف إلى الموسيقا الكلاسيكية فقد كان يعزف على أرغن بدائي في الكنيسة ويطلب إليّ أن أرافقه في الترتيل والغناء ، والظاهر أنه استحلى صوتي فكان يؤكد أنني موهوبة وأنه سيسعى كيما يتاح لي الانتساب إلى معهد الموسيقا والغناء فقد يكون لي ، على رأيه ، في المستقبل شأن في عالم الأوبرا والمسرح .

ــ أتخيلك أنت والأب برنارد في الكنيسة : هو عاكف على الأرغن يتدلى شعره الأبيض على كتفيه وأنت في روعة شبابك منطلقة في الترتيل قرب نافذة عالية تخترق أشعة الشمس في الأصيل زجاجها الملون والمطعم بالزخرف والنقوش ، وتمثال السيد المسيح ومن حوله الملائكة يستمعون إلى العزف والترتيل ! وددت لو أن الفنان الكبير « رافائيلو » ، وهو العبقري في مثل هذه الصور القدسية ، وددت لو أنه شاهدكما وثبت المشهد في لوحة خالدة !

ــ لا تذهب بعيداً في القدسية والخيال فقد عرفت للأب برنارد وجهاً آخر عجيباً ما أظن أن صاحبك « رافائيلو » يتذوقه ! كان الأب برنارد فقيراً يقنع في عيشه بالأقل ولم يكن طعامه في الغالب يتجاوز الخبز والجبن والكستناء ، حتى إذا قدم آل فان هايشلباخ في موسم الصيد هجر الكنيسة وهرع إليهم وإذا بالمعتكف المتعبد الصامت بالأمس محدث طلق ظريف بارع النكتة أحبته الكونتيس ودعته إلى مآئدتهم يلازمها ظهر مساء ، وإذا بالزاهد الناسك يلتهم الطباق الدسمة في شهية الذئاب ويكرع من فوقها أقداح النبيذ دون حساب ، وكأنه يحاول أن يعوض في أسابيع ما فاته طوال العام من معشر وطعام وشراب . مساكين

هؤلاء الخوارنة في الريف الفقير : يتوقون إلى طيبات الحياة الدنيا ويبشرون بحسن ثواب الآخرة !

* * * * *

وعلى ذكر الكونتيس فمن الوفاء القول إنها كانت تنظر إليّ كعضو من أسرتها سيما وأنني يتيمة الأم منذ طفولتي ، وكانت لها حفيدة في مثل عمري فكنت أقيم معها في الدارة طوال الزيارة وكانت تعاملنا كلينا سواء . ولما حدثها الأب برنارد عن موهبتي في الغناء وعن أمله في أن أنتسب يوماً إلى معهد مناسب قصدت في اليوم التالي إلى الكنيسة يرافقها زوجها الكونت فاستمعا إلى غنائي ، والأب برنار يعزف على الأرغن ، فوافقا على الفكرة ووعدا بأن يقوما بالاتصالات اللازمة بعيد عودتهما إلى هولندا .

* * * * *

هذا الخلق الرضي لا يقتصر على الكونتس أو على آل فان هيشلباخ إذ أن هنالك أعرافاً قديمة متوارثة في ريف الشمال من بلدنا تجمع بين السادة المالكين وبين أتباعهم الفلاحين في أسرة كبيرة واحدة وفي رابطة هي رابطة الأرض : رابطة منها نعيش جميعاً وإليها نعود جميعاً وهكذا ظلت بعض الأسر النبيلة في الريف موضع المحبة والتقدير أجيالاً وأجيالاً ، والريف طاهر بريء لا يعرف الزيف ، فلما غادر السادة الملاكون الريف إلى المدن ذهبت أخلاقهم فتعالوا على الريف وأهله وفسد الأمر ، وإني أعاني كل ليلة في نادي الماسة الزرقاء من فعال هؤلاء السادة مما لا يرد في الريف .

ـــ تظلين ناقمة على نادي الماسة الزرقاء وأسوائه وعلى المسبح وسيداته . في بلادي يتعوذ الناس من أعين السوء بقطعة من الشبة وخرزة زرقاء ! وددت يا إليانور لو أهديك هذه وتلك دفعاً لحسد السيدات في المسبح !

بدا لي أنها لم تدرك ما أعني بالتعويذة وبأعين السوء وتابعت تقول :

* * * * *

ـــ كان الاعتقاد السائد لدى العارفين أن بطن الأرض في الغابات من حولنا غني بفلزات الحديد ولكن آل فان هايشلباخ رفضوا دوماً كل العروض المقدمة لاستثمار الغابات كمناجم . كانوا في هذا أوفياء لمبادىء الأسرة في الحفاظ على الأرض كما توارثوها فلا يطيقون

تقطيع أوصال الغابات وتشويه معالمها . وفي هذا الموقف جابهوا السلطات المحلية ونقمة الناس : ذلك أن مقاطعة فالونيا فقيرة نسبياً والبطالة منتشرة ويتوقعون من استثمار المناجم موارد مالية وعملاً لشبابها ، ثم إن تدني سوية العيش فيها أدى إلى توتر صلات أهلها مع مواطنيهم الفلمنديين في شمال بلجيكا وهم أحسن حالاً ، وفي هذا التوتر بين شطري البلد خطر على وحدة بلجيكا في المدى البعيد .

وافق آل فان هايشلباخ أخيراً على أن تقوم بعثة من الخبراء بالتنقيب لمعرفة ما في جوف أرض الغابات للتأكد من صلاح استثمارها تجارياً ، ومن ثم يفكرون في الأمر .

* * * * *

كان في عداد البعثة التي قدمت للتنقيب طالب في جامعة « لوفان » قرب بروكسيل يدعى « لوسيان دوروزيه » رافق البعثة في عطلة الصيف الكبرى لأداء دورة تدريبية تكملة لدراسته الجامعية في طبقات الأرض والتعدين . تعرفت إليه لدى الأب برنارد وتلاقينا بعده مراراً . شعرت منذ البداية أن قلبي خفق له وكان واضحاً أنه مال إليّ ولكنه لم يفاتحني ولم يبد ولم يعد ، والظاهر أنه خجول وفي أول عهده ببنات حواء .

وفي ذات يوم بادرني الأب برنارد ، وقد اتخذ وجه المحدث الظريف المرح ، قائلاً :

— يا بنيتي حرام عليك ! صاحبنا لوسيان ما عاد يصلح للعمل ! ضاع عقله في هواك ! قدم للبحث عن الحديد وإذا به يكتشف أن إليانور فتاة أحلامه .

وضحكنا ثم أوضح لي أن لوسيان لا يجرأ على مفاتحتي وأنه عازم على العودة وطلب يدي بعد حصوله على الشهادة الجامعية في ربيع العام القادم .

* * * * *

أقبل الخريف فغادرتنا البعثة ومعها لوسيان لتضع تقريرها ، وكأنه حمل قلبي معه وبقيت أعد الأيام ترقباً لعودته . ولكن تجري الرياح ... توتر الجو الدولي فكانت الحرب في شرقي أوروبا ثم انتقلت إلى غربها فانقطعت أخبار لوسيان حتى تبين أن أعاصير الحرب عصفت به ، فغاب عني إلى الأبد وكأنه شهاب عابر سطع نوره فترة قصيرة في سماء حياتي . الرجل الأول الذي خفق له قلبي وقد لا تصدق إذا قلت إنه الأول والأخير .

* * * * *

ما أنسى خريف هذا العام ، وفي العمر فترات أثيرة هي جوهر العمر . كنت أعيش في حلمين لذيذين عودة لوسيان وخطوبتنا أولاً والانتساب إلى معهد الموسيقا والغناء ثانياً ، وكأنهما جناحان يعرجان بي إلى سماوات من السعادة والرضوان . بدت لي أشجار الغابات أحلى مما عهدت تشاركني فيما أنا فيه وقد زينتها كسوتها الذهبية .

زاد في روعة ذلك الخريف أنه انقضى في هدوء لم تعكر صفوه طلقات بنادق الصيد ولا نباح كلاب المطاردة مما جرى عليه الأمر في موسم الصيد من كل عام : ذلك أن الكونت فان هايشلباخ عزف عن القدوم نظراً لنشوب الحرب في شرقي أوروبا وهجوم الألمان على بولونيا . وعجبنا ، ونحن في غاباتنا البعيدة ، لهذا الموقف فما للكونت وما لنا ببولونيا والبولونيين ؟

* * * * *

كان الكونت مصيباً في حذره وتخوفه فما أقبل الربيع حتى شن الألمان هجومهم الصاعق على غرب أوروبا ، ولما بلغت الجحافل النازية حدود بلجيكا استسلم الملك ليوبولد وأمر جيشه بإلقاء السلاح .

كان هذا الاستسلام طعنة نجلاء في قلوب أبناء شعبه وفي ظهور الحلفاء الإنكليز والإفرنسيين فبلغت النقمة عليه أشدها سيما وأنه سلم قياده لإمرأة جمعت إلى فتنة الجمال الدهاء والمكر وعرفت بميولها النازية ولمّا يمض عام على مصرع زوجه الملكة استريد في حادث سيارة فاجع وهي أميرة سويدية الأصل وكانت تتمتع بشعبية كبيرة .

أدت هذه النقمة إلى قيام المقاومة السرية في جنوب بلجيكا فركزت قواعدها في الكهوف والمخابىء في جبال الأردين من حولنا وهي عسيرة المسالك والشعاب على الأغراب . وحدث أن نصب كمين قرب قريتنا « هامولارين » أدى إلى مقتل جندي ألماني وأصابه آخرين بجراح فعمد الألمان إلى حجز عشرين رهينة من أهل القرية أعدموا خمسة منهم وساقوا الآخرين ، ومن بينهم أبي ، إلى معتقل « داخاو » في جنوب ألمانيا . والواقع أن أبي ورفاقه يدينون بالحياة إلى الأب برنارد ذلك أن الألمان عزموا على إعدام العشرين رهينة جميعاً ولكن الأب برنارد قصد إلى مقر القيادة في « شارلروا » يؤكد أن لا صلة لأهل القرية بالكمين ويعرض نفسه للإعدام بدلاً من هؤلاء الأبرياء وبعضهم في ريعان الشباب فكان أن اقتصرت القيادة على

إعدام خمسة منهم ظل الأب برنارد يرعاهم حتى اللحظة الأخيرة .

* * * * *

أما وقد سيق أبي إلى المعتقل وأصبحت وحيدة فلم يعد مبرر لبقائي في « هامولارين » ولا في بلجيكا كلها وعزمت على أن أعود إلى قريتنا « كورهافن » من شمال هولندا وأن التجأ إلى سادتنا آل فان هايشلباخ ولكنني علمت لدى وصولي إلى امستردام أن هؤلاء السادة غادروا الوطن المحتل إلى لندن والتحقوا بالملكة « ولهمينا » فيها . ذلك أن هذه الملكة سبق أن رفضت الاستسلام للغزاة الألمان وقصدت مع أسرتها وحاشيتها إلى لندن وشكلت حكومة حرة . شتان ما بين موقف ملكة هولندا ، هذه المرأة المريضة الطاعنة في السن ، وبين موقف ملك بلجيكا هذا الشاب العاشق الغرير !

واتفق أن عين الكونت فان هايشلباخ وزيراً في حكومة هولندا الحرة في لندن فنقم عليه الألمان وصادروا قصره وأملاكه ومنها دارنا القديمة في القرية . واحترت في أمري وأنا الوحيدة المعدمة وعلم بخبري بعض أصدقاء الكونت ممن كانوا يرافقونه في رحلات الصيد ضيوفاً عليه في « هامولارين » وعرفوني هنالك فتقدموا لي ببعض العون وأشاروا عليّ بأن أبيت مؤقتاً في نادي الماسة الزرقاء وكان قد أوقف نشاطه منذ بداية الاحتلال الألماني ، وما سبق لي أن سمعت بهذا النادي ولكنني وجدت فيه ملجأً أميناً ومقاماً وثيراً حتى يفتح الله سبيلاً .

* * * * *

ما مضى أسبوعان على مقامي في النادي حتى صادره الألمان وجعلوا منه نادياً لكبار ضباطهم والظاهر أنهم اعتبروني من متاع هذا النادي فصادروني معه وألزموني بالخدمة فيه ولم يكن لي من حيلة ولا خيار .

بقيت في النادي على مضض ولو أن سلوك هؤلاء الضباط تجاهي وتجاه العاملات فيه كان سوياً لا مأخذ عليه . وقد عرفنا مع الأيام أنهم فريقان اثنان يتفاوتان في الكثير يتحاشى أحدهما الآخر ولا يطيقه : فريق القادة العسكريين المحترفين وأكثرهم ينحدرون من أسر نبيلة أو عريقة في خدمة السلاح وكانوا على غاية التهذيب والحرمة حتى مع الخادمات أمثالنا ، وفريق الضباط الدخلاء على الجيش وهم يعملون في مصالح الاستخبارات والشرطة السرية والأمن ... وأكثرهم من منبت وضيع وكانوا يتجاهلوننا في كبرياء وخيلاء فإذا هدر جهاز

الإذاعة بأخبار انتصارات الألمان في جبهات الشرق والغرب والبحر المتوسط وشمال أفريقيا عمدوا إلى مزيد من الأنخاب والشراب في غطرسة وثمالة وكأنهم وهم لا يمارسون القتال ، هم أبطال تلك الانتصارات !

ومن الحق القول إننا أفدنا مما توفر في النادي إذ ذاك من مواد غذائية وحاجات شتى كان الناس منها في تقنين أو حرمان .

* * * * *

بعد مضي حوالي عامين أخذت كفة نيران الحرب تعتدل لصالح الحلفاء فلم يعد في أقوال المذيع الألماني تلك النبرة المتقدة الحماسية ، فلما هبطت كفة النازيين بما لا لبس فيه أخذ بهؤلاء الضباط وجوم وذهول وأخذوا يتحدثون إلينا وكأنهم شعروا أخيراً بوجودنا بعد ذلك التجاهل الطويل .

أخذ بعضهم يدعوننا للمشاركة في الشراب مما ليس له سابقة من قبل . تطلع إليّ أحدهم وقال إن له ابنة في مثل عمري وأخرج من محفظته صورة زوجه وبناته الثلاث وذكر أنهن لجأن من مدينة « لايبزيغ » في شرقي ألمانيا إلى هامبورغ ولا يدري ما تم لهن ، وأضاف أحدهم أن دارته في برلين ، وقد كان يهوى أغراس الورود في حديقتها ، قد أتت عليها غارات الحلفاء الجوية ، وتأمل آخر في صورة ضابط شاب وضعها قبالته على المائدة وقال إنه ابنه الوحيد وقد سقط في الجبهة الروسية جريحاً .

وسبحان من لا يتحول : بدا لنا أن هؤلاء الضباط هبطوا من ذروة غرورهم وأوهامهم في مركز القيادة العليا إلى واقع الأرض وصاروا بشراً سوياً مثلنا يعانون وذووهم من ويلات الحرب ما يعانيه الملايين من الناس .

* * * * *

وأخيراً غادر هؤلاء الضيوف الثقلاء النادي قبيل انسحاب الألمان من هولندا وتحريرها ، وأخذ النادي يعاود نشاطه ويتوافد إليه بعض الأعضاء القدامى بعد أن تشتت الشمل طوال الاحتلال .

كان خيراً لي لو غادرت النادي فوراً فما خلقت للنوادي وما خلقت لي ، ولكن جو النادي كان في البداية أنيساً وديعاً وكان الأعضاء القدامى في غاية الطيبة ينظرون كابنة لهم ،

وهكذا تقاعست واستمرأت حياة النادي وأنست إليه ، فما مضت بضعة أشهر حتى تواردت على النادي وجوه جديدة من أثرياء الحرب المحدثين الذين جمعوا ثروات طائلة في الأسواق السوداء وفي صفقات مشبوهة ذهبت أحياناً إلى التعاون مع الأعداء . وهكذا هبطت السوية الخلقية في النادي ، وليس مثل الحرب واحتلال الغريب مفسدة للناس . واستقدم هؤلاء الأعضاء الجدد مضيفات وصيفات من طراز خاص يودون التمتع في صحبتهن ما وسعهم وكأنهم يخشون أن تفلت أموالهم من بين أيديهم ، والمال الحرام قصير العمر .

— ولماذا تغادرين النادي وعملك فيه يسير ظريف ؟ لقد زرت النادي ليلة فوجدت فيه الأنس والدعة والصفاء ، وبعد يا إليانور هل من نقيصة في أن تضفي زميلاتك الوصيفات على النادي بهاء الشباب والجمال ؟

— أن تزور النادي كضيف ليلة شيء وأن أعمل فيه الليالي خادمة شيء آخر . في ظاهر النادي كما بدا لك نضرة النعيم ولكن في باطنه الجحيم . أما المضيفات فلا يغرنك قوامهن وفتنتهن ، إنهن خليط عجيب يذهب من المحترفات الماكرات الخطرات قانصات الأزواج إلى طالبات الجامعة الغريرات الهاويات أو المغامرات ، وإنما يجمع بينهن أمر واحد هو ابتزاز المال من أعضاء النادي في أعظم قدر وفي أقصر وقت وفيما يباح وما لا يباح . وليس أخطر من المرأة حين تكره الرجل وتطمع في ماله فهي تجند لغاياتها من وسائل الإغراء والخداع ما يعجز عنه الشيطان في أحابيل من المكر تعجز عنها الأفعى والثعلب والحرباء مجتمعة !

وإني لأعجب كيف صبرت على ما كنت فيه وزميلاتي من حولي ينظرن إلي كساذجة مغفلة من بنات الريف لا تدرك أن عليها في عهد شبابها وهبوب رياحها أن تجمع المال باليمين واليسار في المشروع وغير المشروع قبل أن يتقدم بها العمر فلا يلتفت إليها مخلوق .

— ظبية الغاب .... وقعت بين الذئاب .

— دع عنك كل هذا : ظبية الغاب ذهبت أدراج الرياح منذ أيام « هامولارين » في جبال الأردين ، ومنذ وداع ذلك الشاب « لوسيان » . واقع الحال أنني أعمل طوال الليل وأضطر للنوم في النهار فلا يتاح لي أن أخرج من وسط النادي الممقوت لألقى الشباب من أبناء جيلي فأجد لي سبيلاً .

— أولا ترين أن في لقائنا هذا السبيل ؟

* * * * *

تلاقت نظراتنا وكأننا نستطلع الغيب ثم أجابت :

ــ لست بالساذجة المغفلة كما يظن ، وقد فكرت في أمرنا وأصارحك فيه . تقرب بيننا عاطفة متبادلة قد تكون صادقة حقة أو طارئة عابرة ما أدري ، ولكن يفرق بيننا كل شيء : إننا من عالمين اثنين لا يقترنان . أنا ريفية فقيرة جاهلة من أصل متواضع ، وأنت فيما أنت فيه من نعم الله ، وإذا لم تكن عضواً في نادي الماسة الزرقاء فإنك من طبقة جماعته وتعيش في أوساطه وليس لإمرأة مثلي مكان فيها فلا سبيل إلى صلات دائمة بيننا ومن الخير أن لا نخادع أنفسنا وأولى بك أن تعود إلى السيدات صاحباتك في المسبح قد يحسبن أنني خطفتك من بين أيديهن !

* * * * *

أعجبت بصدقها وتواضعها وزادت في قلبي حباً وفي عيني مكانة فاندفعت أحاول أن أثنيها عن موقفها في تأثر وحماس وكان مما قلت :

ــ إن ما يجمع بيننا أقوى من كل شيء ولا تقف أمامه اعتبارات موهومة فلا شأن لرصيد الثروة ولا لشجرة النسب في قيمة المرء وكرامته ، وقد درجنا في بلادي على التقارب والتعايش بين خلق الله جميعاً سواسية كأسنان المشط وفي عقيدتنا أن خير الناس خيرهم للناس لا أكثرهم مالاً وولداً ، بل إن الويل كل الويل لمن جمع مالاً وعدده . أقصدك لذاتك كما أنت .

* * * * *

ما أظن أنها اقتنعت بأقوالي ولكنها لم تقو على الصد والقطع . كانت تخشى من وراء صلاتنا مغامرة لا مستقبل لها ولكن ما الذي تخسره وحياتها فراغ في فراغ . وكان أن وقعت بين بين ولسان حالها :

منًى إن تكن حقاً تكن غاية المنى وإلا فقد عشنا بها زمناً رغدا

عشنا زمناً رغدا ، وإنما نغص هذا العيش أنني تحاشيت الظهور معها في الأماكن العامة خشية أن يرانا بعض الأصحاب ممن قد يكونون عرفوها عاملة في النادي ، فكنا نلتقي في مواقيت غير مألوفة وفي جهات غير مطروقة وكأننا في سبيل التجسس أو تهريب مواد مشبوهة . كنت أعيش حياة مزدوجة حرجة : أجتمع إلى إليانور في الخفاء وفي أحياء شعبية

وأتابع صلاتي المعهودة في العلن في أوساط المجتمع .

* * * * *

صبرت إليانور على كل هذا وتجاهلته لا تشكو ولا تنبث ببنت شفة . أذكر من قبيل المثال أنها طالما تمنت ، وهي الهاوية للموسيقا والغناء منذ أيام الأب برنارد ، أن نقصد معاً حفل كونسرت موسيقي أو سهرة في مسرح الأوبرا فكنت أداور وأتخلص خشية أن نلقى في المسرح أو في قاعة الموسيقا من عرفوها . والحق أن في هذه الحياة المزدوجة ارهاقاً للأعصاب وكأنني أسير على سلك مشدود في سيرك أخشى معه في كل خطوة عثرة .

* * * * *

كانت أوبرا لاهاي تحتفل بمرور مائة وخمسين سنة على تأسيسها وكانت ذروة المهرجان سهرة تمثل فيها المسرحية الغنائية « عائدة » من تلحين الموسيقار الإيطالي الشهير « فيردي » ألفها خصيصاً منذ حوالي مائة عام لتمثل لأول مرة في أوبرا القاهرة التي بنيت إذ ذاك لهذه الغاية بمناسبة الاحتفالات بافتتاح قناة السويس . زاد في شأن هذه السهرة أنه يقوم بالدورين الرئيسيين من المسرحية الغنائية السيدة « ماريا كالاس » والسنيور « لوشيانو بافروتي » وهما في عالم الغناء المسرحي نجمان من فلتات الدهر . بلغ من إقبال الناس على هذا الحفل أن البطاقات نفذت فور صدورها في غمضة عين وصارت تباع في السوق السوداء لقاء مبالغ طائلة !

كنت مدعواً للحفل وإذ بزوجة أحد زملائي ، وهم مدعوون جميعاً ، تهتف إلي وترغب في أن ترافقني إلى الحفل فقد ألم بزوجها وعكة يتعذر عليه معها حضور الحفل وهي حريصة على حضوره ولكن لا تود أن تظهر فيه لوحدها . وقبلت على مضض يشهد الله فالمعروف أن السيدات لا يطقن الصمت في المسرح وكنت أفضل أن أنصرف بكليتي إلى موسيقا المسرحية ومقاطعها الغنائية .

قصدت منزل السيدة وعدت الزميل المتوعك سراعاً ثم توجهت وزوجه في السيارة إلى مبنى الأوبرا حتى إذا بلغنا ساحتها رأينا جمهوراً من الناس مكتظين على اليمين وعلى الشمال من الطريق يترقبون مشاهدة السيدة « كالاس » والسنيور « بافروتي » ، ويلهون بالتفرج على جماعة الحفل القادمين ولا سيما على السيدات في أنيق ملابس السهرة وفاخر الزينة .

وللأقدار عبث عجيب : في اللحظة التي نزلنا فيها من السيارة لنصعد درج الأوبرا الرخامي وقعت عيناي ، في لمح البصر ، على إليانور بين المتفرجين ووقعت عيناها علينا . صعقت وكأنما أصابني سهم أما إليانور فقد شحب لونها وكأنها في لحظة تقدم بها العمر عشر سنين .

لم تكن إليانور تجهل صلاتي الاجتماعية بطائفة من الصاحبات وكانت تعمد إلى الصبر والتسامح مقدرة ظروفي أما أن ترى رأي العين إحداهن تتأبط ذراعي لتنعم بالحفل معاً وتجد نفسها وحيدة على قارعة الطريق وهي التي طالما رغبت إليّ في أن نقصد إلى مثله دون طائل ... فهذا كثير ... كانت القطرة التي طفح معها الكأس .

* * * * *

علمت في الغداة من إدارة النادي أن إليانور حصلت على إجازة أسبوع لأمر طرأ لها وأنها غادرت إلى قريتها « كورهافن » في الشمال . ذهبت ولا ريب إلى الريف لتلملم جراحها .

خطر لي أن أقصد إليها في قريتها وإذا بي أتلقى بعد ثلاثة أيام رسالة مطولة كانت صدمة أليمة ولئيمة ذهلت لها ودرساً بليغاً لا أنساه ما حييت . رسالة ما كنت أظن أن إليانور قادرة على تسطير مثلها ولكن يبدو أن الألم يفجر القدرة ، ثم إن في الرسالة وحياً من تلك الدروس في المعرفة الإنسانية الصافية التي تلقتها على يدي الأب برنارد ، هذا الراعي الروحي الذي خبر الناس عن كثب واعترفوا له بالصالح والطالح .

أعدت تلاوة الرسالة مراراً وأعاود تلاوتها بين الحين والحين حتى حفظتها عن ظهر قلب وأورد لك بعض ما جاء فيها .

« ... ألم أقل منذ البداية إننا من عالمين اثنين لا يقترنان . عالمين يفترقان لا في الثراء وسوية المجتمع فحسب وقد أكدت أن لا شأن لكل هذا لديك ، إنهما يفترقان في أمر رئيسي في صلاتنا أعني مفهوم الحب : في عقيدتي وخلقي الحب عطاء عفوي مطلق لا يعرف حدوداً ولا حساباً ولا يشوبه التخطيط والتقدير وهو وحيد الاتجاه يهدف دون تردد أو انحراف إلى من أرشد إليه القلب فيلزمه ليل نهار وفي السراء والضراء وكأنه المائع الناري إذا ما تدفق من جوف البركان فلا قدرة لأحد عليه فيسيل إلى غايته ويقف عندها جلموداً أبداً ... » .

« ... ولست أدعي معرفة دخائل نفسك وأنا شبه أمية ولكن غريزة المرأة بصيرتها وقلما تخطىء هذه البصيرة في معرفة الرجال . أخال أن لمفهوم الحب لديك شأناً آخراً : توزع الحب لدى صاحبات عديدات وتوظفه بقدر معلوم وفق تخطيط مرسوم تخشى ألا يفلت من بين يديك وتبغي له الضمانة والسلامة فلا تفتح قلبك للحب الأوحد الحق ... إنك ضنين بالحب وما أظن أن الضنين بحبه يسعد فما كانت سعادة الحب في توزيع القلب شطائر هنا وهناك . ولا في كثرة الصاحبات أو تعدد الزوجات ... » .

« ... وإني لأرثي لهذا القلب الموزع وأعجب كيف يخفق في صدر صاحبه خفقاً سوياً ... » .

وجاء في ختام الرسالة :

« ... في كل هذا لا لوم عليك ولا تثريب فكل امرىء ميسر لما خلق له . نصيبي من متاع الحياة الدنيا قليل ولكن قلبي يطفح بالهناء كله بمن أحببت ولا يبغي ورائه شيئاً ، وأنت فضل الله عليك عظيم ولكن قلبك لا يستقر ويسعى إلى المزيد فلا يهنأ . مالك في الأمر حيلة . أحبك وأشفق عليك ... » .

* * * * *

كنت أترقب عودة إليانور من قريتها كورهافن بعد انقضاء أسبوع إجازتها لنضع الأمور في نصابها ولكن طال غيابها واتفق أن دعتني مهام عاجلة إلى مغادرة هولندا إلى ما وراء البحار فلم يتح لي لقياها ولا وداعها . وهكذا افترقنا ونحن بين بين : بين القطع والوصل وبين الجفاء والود .

* * * * *

في مطلع دراستي الجامعية سكنت عند سيدة افرنسية تدعى مدام روجيه في ضاحية من باريز قرب حديقة « صوروبنسون » الكبرى . كانت تؤجر في دارتها غرفتين وكان جاري في الغرفة الأخرى رجلاً عملاقاً ضخم الجثة تحسبه مصارعاً محترفاً وهو روماني يدعى « جورجيو توماسكيو » تجاوز الأربعين من العمر فقد كان مدرساً للفلسفة في بوخارست وأوفد لنوال شهادة الدكتوراه في علم النفس من جامعة الصوربون في باريز ، وكانت بين رومانيا وفرنسا إذ ذاك صلات ثقافية وثيقة تقليدية بحكم أصول البلدين اللاتينية رغم وقوف عالمي الجرمان والسلاف بينهما .

كان جاري ظريف المعشر فكنا نتجاذب الحديث الفكه حول مائدة مدام روجيه ، وكنت أحضر شهادة الرياضيات العليا تمهيداً لدراسة الفيزياء فكان يداعبني ويقول :

— ساعدك الله فيما أنت فيه ... إني لا أطيق الرياضيات ... وإني لأرثي لك ... كانت دروس الرياضيات الساعات السود في دراستي في بوخارست وكان الفزع الأكبر فحص الرياضيات ... ولولا تسامح الأساتذة وتفوقي في مواد أخرى لما طلعت منها . وإني لأعجب كيف أن جماعة من الناس يتصفون بالذكاء يزهقون أرواحهم في أرقام وحروف وفي خطوط ومنحنيات ... لا طلاوة فيها وما أظن أن أحداً انتفع فيها في واقع الحياة .

وكنت أنتصر للرياضيات فأرد الهجوم بمثله وأقول :

— إن عجبي أكبر في أن تتحدثوا عن علم النفس وليس فيه من مقومات العلم لا قليل ولا كثير ، وتزعمون تحليل النفس في اليقظة والأحلام وما تدرون ما هي النفس ! لو أن قطبكم الأكبر « سيغموند فرويد » بعث من قبره وشهد ما يلقى الناس من السخف والأباطيل والشعوذة على أيدي أتباعه ومن وراء نظرياته ومكتشفاته .. لو شهد كل هذا لمات من الحسرة والخجل مرة أخرى ....

* * * * *

أوردت ما سبق تعريفاً بصاحبي الروماني وتمهيداً لبيت القصيد التالي : كان الأستاذ توماسكيو يحاول تطبيق دراساته في علم النفس على مدام روجيه وعليّ فكان يرقب حركاتنا وسكناتنا ويطرح علينا بعض الأسئلة عن ماضينا وحاضرنا وعن أهلنا ومواطننا ... ثم يطلع علينا بين الحين والحين بآراء عن خلقنا الكامن ونزعاتنا النفسية .. كانت موضع الجدل والتسلية في سهراتنا .

بعد تلاوة رسالة إليانور وما أوردته فيها بحقي ذكرت صاحبي الروماني في باريز وأشهد أن ما جاء في تلك الرسالة أبلغ وأعمق من كل ما سمعته من الدكتور توماسكيو عني طوال عامين تجاورنا فيهما .

وفي الحديث الشريف « خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء » ولقد عرفت كل حقيقتي من تلك الهولندية الشقراء .

* * * * *

عوداً إلى قصتنا ، انقضى حوالي خمس سنين وأنا بعيد عن هولندا في العالم الجديد وانقطعت عني أخبار إليانور وقد صرفتني مشاغل الحياة وشطائرها ، كما قالت ، عن مراسلتها ، ولكن إليانور ظلت في خاطري فإذا ما استعدت ذكراها بدت لي أنها الوحيدة التي أحببتها حباً عفوياً عميقاً ، وأنني فرطت في حقها وظلمتها وظلمت نفسي خشية الناس ، والحب الصادق نعمة من الله وكان من واجبي أن أرعاه .

بعد هذه السنوات الخمس عدت إلى مراكش فكان الشوق يدفعني أحياناً إلى محاولة الوصل مع إليانور فأتقاعس وأبرر تقاعسي باعتبارات كثيرة : قد تكون إليانور نسيت شأني كله وذهب ما كان بيننا أدراج الرياح ... وإنني لا أعرف ما صنع بها الزمان ولعلي لو شهدتها بعد هذه السنين لأنكرتها وأنكرتني .. ثم هل ترضى عني بعد هذا القطع والهجران ؟ وهل وقفت نفسها عليّ حتى تظل صابرة تنتظر عودتي ؟ ومن يدري فقد تكون وجدت لها قريناً وهي تلاعب اليوم أطفالها على ركبتيها !

فوق هذه الاعتبارات كلها كنت أميل إلى الظن ، في شيء من الأمل والغرور ، أن إليانور صابرة وفية لحبنا وأنني واجد لديها إذا ما عدت أهلاً وسهلاً . إنها الجوهر الكريم قد تغفل عن رؤيته سنين وسنين ولكنك تعرف أنه موثوق وفي حرز حريز تطمأن إلى وجوده حين ترجع إليه .

ودارت الأيام وأنا بين إقدام وإحجام حتى جاءت صدفة لم تكن بالحسبان .

* * * * *

« مارسيل غراملو » من خيرة أصدقائي في عهد الدراسة في باريز ما انقطعنا بعدها عن التراسل والتزاور طوال أربعين عاماً . كان يأخذ عليّ أنني أجنح في مقامي في أوروبا إلى بلاد السكاندينافيين والجرمان وأعزف عن بلاده فرنسا وهي التي قضيت فيها شطراً كبيراً من فتوتي وشبابي . وما يجوز لي أن أصارحه بالحقيقة ، والحقيقة مرة ، ذلك أنني أهوى فرنسا في جمال ربوعها ومعالم حضارتها ولكنني لا أستسيغ الأفرنسيين فيما طبعوا عليه من العنجهية والتعصب والإدعاء ، أما الأفرنسيات فرغمَ ما اشتهرن به من الأناقة وحسن الذوق فإنهن في الأنوثة والوداعة وصادق الحب دون جاراتهن من بنات حواء في الشرق والشمال .

وفي ذات يوم تلقيت رسالة من صديقي مارسيل يذكر فيها أنه سيحتفل في القريب

بمرور ثلاثمائة سنة على تأسيس معهد « لويس الكبير » وهو الذي جمعتنا مقاعده جنباً لجنب ، وأنه سيعقب الحفل سهرة راقصة في برنامج فني ممتاز وأن كثيراً من رفاق الدراسة في أيام الفتوة إذ ذاك سيقدمون لهذه المناسبة إلى باريز من شتى المقاطعات الإفرنسية ويطلب إليّ المشاركة في الحفل وفاء لمعهد ندين له بالكثير وهي فرصة للقاء الرفاق القدامى واستعادة ذكريات عهد لعله أحلى عهود الحياة .

هؤلاء الرفاق ما أنساهم ففي دارنا في مراكش صورة جماعية لنا يوم التخرج من المعهد يتوسطنا مدرس الرياضيات العليا الأستاذ « فلافيان » بلحيته الكثة الشقراء وصلعته اللامعة الوضائة ، وقد كان مثالاً فذاً للمدرسين المؤمنين برسالتهم والذين خرجوا أجيالاً هم عماد فرنسا اليوم .

واستجبت لدعوة صديقي مارسيل .

* * * * *

كلما زرت باريز قصدت إلى المتجر الكبير المعروف « غاليري لافاييت » لأشهد ما انتهت إليه الأذواق في مدينة النور . وهدفي الأثير في المتجر هو قسم بيع العطور . ما أظن أن له في الدنيا مثيلاً : رقع مربعة مثل رقع الشطرنج تفصلها ممرات لا حواجز بينها تعرض فيها بيوتات صنع العطور المشهورة أفخر عطورها وتبدع في أسلوب العرض حتى يبهر الأنظار ويفرض على المتجول الوقوف عندها يتطلع إلى قوارير جعل منها مصمموها بدعاً فنية بحد ذاتها فضلاً عن محتواها من العطر الزكي الغالي ، ثم إن هذه البيوتات تتبارى في حسن اختيار الفتيات المشرفات على هذه الرقع ظرفاً وأناقة وجمالاً .

والمعروف أن فرنسا امتازت تقليدياً بثلاث : العطور والخمور وتصميم الأزياء . أما تصميم الأزياء فقد طلع جماعة من الفنانين الموهوبين في روما وميلانو فتسلطوا عليه ، وأما الخمور فقد جاءت كروم كاليفورنيا بما يزاحمها ويفوق عليها . بقيت العطور الحصن المنيع على أسواره رايات لها أمجادها في عالم زينة النساء وسحرهن يرد في مقدمتها : شانيل ، باتو ، روشا ، ديور ، أعلام ما يكاد يلفظ اللسان اسمها حتى يطلع على الأنف عبيرها ...

* * * * *

غادرت ركن العطور متجهاً نحو البوابة الرئيسية وإذا بمفاجأة ماكنت أتوقعها : لقيت

إليانور وجهاً لوجه ! ذهلت للمفاجأة أما هي فلم ترتعش و لم تنفعل وكأننا نلتقي على ميعاد اتفقنا عليه في الأمس . هدوء الهولنديين والهولنديات يشارف البلادة . ارتج علي فلم أحر كلاماً ولكنها تطلعت إلى رفيقة لها تصحبها وقالت :

— هذا هو طاهر ... أما قلت لك مراراً إنني سألقاه ؟

وقدمت إليّ رفيقتها « مادلين » والظاهر أنها ثرثارة فاندفعت تقول :

— طالما حدثتني إليانور عنك ... حتى كأنني أعرفك ... ويسعدني أنني سعيت إلى هذا اللقاء دون علم مني : لولاي لما كانت إليانور هنا اليوم ! منذ زمان طويل وزيارة باريز في خاطري وما كان لنا نصيب حتى اطلعت على إعلان لشركة « آبولو » للسياحة عن رحلة إلى باريز شروطها مغرية جداً . أربعة أيام بلياليها مع وجبة كاملة وجولات على معالم باريز وسهرة في نادي ليلي فجوري وقدح من الشامبانيا فيه ... كله لقاء ٤٩٩ فرنك !

تطلعت إليها إليانور تحاول وقفها عن الخوض في هذا الحديث ولكن مادلين تابعت تقول :

— صحيح أن الفندق عادي من طبقة نجمتين ولكنه هادىء نظيف ، وصحيح أن الباص تعبان ولكن ما استغرقت السفرة عليه أربع ساعات . تصور أن إليانور ترددت في البداية بحجة أننا في بحر الشتاء . لو كانت الرحلة في الموسم السياحي لكلفت ثلاثة أضعاف ! ثم هل يقصد الناس باريز من أجل حمامات شمسية ؟ والظريف أن شركة « آبولو » للسياحة احتفظت بحقها في إلغاء الرحلة إذا لم يبلغ عدد المشتركين فيها خمسة وأربعين شخصاً أي كامل مقاعد الباص تماماً . كنا آخر من حجز فأكملنا العدد المطلوب . لولانا لما تمت الرحلة ولولاي ...

ما كانت مادلين لتقف في سيل الحديث لولا أن لفحة ريح باردة هبت من خارج المتجر قابلتها لفحة ساخنة من الهواء المكيف في داخله فكادت اللفحتان تنزعان قبعتها عن رأسها فسارعت إلى الإمساك بها باليدين ... وضحكنا ... وعاد إليّ روعي بعد مفاجأة اللقاء فسألت إليانور عن حالها فأجابت في بساطة عفوية توجز شطراً من حياتها في بضع كلمات .

— بخير على حطة يدك . ليس ما يستحق الذكر سوى أنني غادرت نادي الماسة الزرقاء وأعمل الآن في مضافة قرب مطار امستردام الدولي لاستجمام قائدي الطائرات .

* * * * *

تأملت فيها . في الواقع ظلت على حطة يدي كما قالت . هي هي التي خلعت أوتار قلبي حين رأيتها للمرة الأولى مستلقية على رمال الشاطىء من بحر الشمال قرب لاهاي . رفق بها الزمان فما نال من بهائها إلا لماماً وإنما ساعد في نضوجها وليس أزكى من الفاكهة المتمهلة بين خواتم الصيف وبواكير الذهبيات .

وشعرنا أننا أطلنا الوقوف عند مدخل المتجر في زحمة من الناس وفي مهب الرياح باردها وساخنها فتواعدنا على اللقاء عصر ذلك اليوم في مقصف المتجر في الطابق الأعلى منه .

* * * * *

كنت في وضع نفسي قلق . قبل ثلاثة أيام اجتمعت في حفل معهد « لويس الكبير » إلى رفاق الدراسة لحوالي أربعين عاماً خلت . ما عرفت بعضهم فقد عصفت الأيام بسمات الفتوة التي عهدتها على وجوههم وسطرت عليها أخاديد ومنحنيات من مخطوطة العمر . والأكيد أنهم لحظوا هذا على وجهي أيضاً ولعلهم ما عرفوني بعد هذا الفراق الطويل .

تحدثت إليهم ، وكانت ترافقهم زوجاتهم فعرفت أنهم ينعمون بحياة الأسرة مستقرين في ديارهم ومن حولهم البنون والبنات . عجبوا أنني لم أزل أعزب ومن حقهم أن يعجبوا .

أخذت بعيد الحفل أحاسب نفسي ، ومن الخير حساب النفس بين الحين والحين دون مواربة ولا تبرير . أربعون عاماً من لب العمر ماذا صنعت بها وبم خرجت منها ؟ بدت لي الحصيلة هزيلة : مهام رسمية كان لها بعض الشأن في زمانها ثم صارت على هوامش التاريخ . تدوين مذكرات لا يتاح نشرها فتحبس في الأدراج . نشر مقالات في المجلات لا تلبث أن تطوى في الغد . إلقاء محاضرات هنا وهناك تصير إلى النسيان عقب موجة التصفيق ...

هذه الأربعون عاماً كيف قضيتها ؟ سفر دائم وسعي مستمر وراء ماذا ؟ هنالك في الظاهر هدفان : الأول تجوال في بلاد الله حتى أختار واحداً منها للإقامة فيه ! وها قد فات الزمان ولمّا يقع الاختيار ! والهدف الثاني تطلع إلى رفيقة الحياة أسعى إلى إحداهن تبدو لي فيها كل المحاسن حتى إذا ما سكنت إليّ أخذت تظهر لي المعائب وسعيت إلى سواها :

غـيضن مـن عبراتهن وقلـن لي ... مـاذا لقـيت مـن الهوى ولقينـا ؟

* * * * *

مالنا وللماضي ، فما فات فات . بدا لي أن الاجتماع إلى رفاق الدراسة أيقظني من غفلتي وفتح بصيرتي ، وأن في لقاء إليانور على هذا الشكل العجيب دعوة علوية إلى سلوك سبيل سوي جديد . وإذا أراد الله أمراً هيأ أسبابه .

جلست وإليانور في ركن من مقصف المتجر في الطابق الأعلى نشهد من نافذته بعض معالم باريز من أبراج الكنائس الصاعدة إلى العلا إلى الجسور المنبطحة على نهر السين . رويت لها ما ساورني طوال سني الفراق من ذكراها ورغبتي في الوصال بين إقدام وإحجام وما يأخذ بي بعد حفل المعهد وهذا اللقاء . أوضحت لها مالي وما علي صراحة وجهاراً ... وفي هدوئها الرتيب أوجزت الجواب :

— حزرت كل هذا وحدثني به قلبي . ألم أقل لك يوماً إن قلب المرأة المحبة دليل لا يخطيء ؟ ولقد علمتني دروس الأب برنارد أن أتقبل مشيئة الأقدار خيرها وشرها وأن لا آسف علي ما فات . جمعت بيننا الأقدار في مسبح الماسة الزرقاء ثم فرقت بيننا دون أمل . كنت واثقة من لقائنا ولكن ما كان ليخطر لي في بال أن يكون على عتبات « غاليري لافاييت » في باريز ... لولا إصرار مادلين ...

* * * * *

وقفت عند هذا في جوابها وساد الصمت بيننا وأخذ الظلام يلف معالم المدينة من بعيد ، ونهار الشتاء قصير ، وإذا يشع منها عقود وحبال من النور ، وهكذا كنا في الخاطر نودع ليلاً مضى لنستقبل فجراً جديداً .

بعد يومين عاد الباص الهولندي من باريز إلى امستردام يحمل رفاق إليانور . جلست فيه مادلين وإلى جنبها مقعد شاغر .



مفتاح ريو دو جانيرو

صديق العمر طاهر بن سيدي حنون زاهد في نشر أقاصيصه ، من رأيه أن القصة خلقت لتروى وتسمع لا لتطبع وتقرأ ففي نبرات صوت الراوي وإشاراته ولحظاته زينة القصة ، وأنه سيأتي يوم تستبدل فيه كتب الأقاصيص بتسجيلات صوتية مرئية . حدثني يوماً قال :

عُهد إلي بمهمة في البرازيل وغادرت مراكش إلى نابولي لأبحر منها على ظهر الباخرة « كريستوف كولومبوس » وهي من أفخم عابرات المحيط أراد الإيطاليون أن تكون في زخرفها وأثاثها خير رسول للفن الإيطالي العريق .

وصلت إلى نابولي فلقيت هذه الباخرة رابضة في المرفأ كالطود العظيم تتأهب للإقلاع إلى ريو دو جانيرو في رحلة تستغرق أسبوعين إثنين مروراً بلشبونة في البرتغال وداكار في السنغال تربط بين قارات ثلاث .

اقترب موعد الإقلاع وساد رصيف المرفأ جو الهرج والمرج ، والصياح والبكاء ، وأخذت جوقة الموسيقا على ظهر الباخرة تعزف ألحان الوداع فازداد الناس تأثراً وانفعالاً تحسب أنهم قدموا لوداع أبنائهم الوداع الأخير .

وقفت على ظهر الباخرة ، بسم الله مجريها ومرساها ، متطلعاً إلى عالم جديد لا أدري ما كتبت لي فيه الأقدار .

* * * * *

تعرفت منذ بداية الرحلة إلى السنيور « ماريوشيكيني » وزوجه « غابرييلا » وكلاهما يقصدان إلى ريو دو جانيرو أيضاً ، وتوثقت صلاتنا خلال الرحلة ، والمرء على ظهر الماء أكثر انطلاقاً وانفتاحاً منه على اليابسة ، وهكذا علمت أن السنيور ماريو وزوجه يعملان في تجارة أحجار الماس في ظروف تبدو أنها أقرب إلى الهواية منها إلى الاحتراف فليس لهما متجر علني ثابت وإنما يتجولان بين جنوب إفريقيا حيث يشتريان الأحجار الكريمة وبين المدن الكبرى في البرازيل والأرجنتين حيث يبيعانها مباشرة إلى أهل الثراء .

تبين لي خلال الرحلة ، وهي طويلة ولا مشاغل فيها ، أن السنيور ماريو وزوجه يكتملان في هذه التجارة البارعة المجزية : ماريو الوسيم الطلعة الرقيق الجانب يتولى العلاقات العامة

والدعاية في أوساط المجتمعات الرفيعة ولا سيما لدى السيدات ذوات النعمة يستزدن من قراريط الماس على مر سني العمر ، أما زوجه غابرييلا فإن الباري سبحانه لا يضرب بسيفين فإذا حرمها من الجمال والقوام المديد فقد وهبها ذكاءً حاداً وحساً مرهفاً وخصها بفراسة في بنات جنسها تعرف كيف تؤكل منهن الكتف فتعرض على إحداهن حجر الماس الذي تعرف أنها لن تقدر على رده . وفي هذا المجال كان لها مع سيدات الركب على ظهر الباخرة صفقات موفقة .

* * * * *

بلغنا ريو دو جانيرو وكأن صداقتنا ترجع إلى سنين ، وإن يوماً في رحلة بحرية أجزى للتعارف والود من أشهر في المدن . وقبيل الوداع أعلمتني غابرييلا أنها وزوجها درجا على إقامة حفل راقص تنكري في منزلهما من كل عام ، وكان موسم الكارنفال إذا ذاك على الأبواب ، تدعو إليه جماعة من الأصحاب ، وأنها حريصة على أن أشارك فيه .

* * * * *

قصدت الحفل فلقيت فيه قلة من الرجال وطائفة من النساء ممن بلغن خريف العمر أو تجاوزنه يلفت النظر فيهن ما ارتدين من ألبسة تنكر فاخرة بذلن من أجلها ولا ريب كثيراً من الجهد والمال . والظاهر أنهن اتفقن ، من أجل هذا الحفل ، على أن يكون موضوع التنكر التشبه بمشاهير النساء في التاريخ وكان أن جلست كليوباترا قبالة الامبراطورة كاترين وجاورت الملكة إيزابيلا مدام بومبادور .

لولا أنهن منهمكات في الحديث لقلت إنني في ركن من متحف الشمع المشهور للشخصيات التاريخية في لندن .

* * * * *

طافت بي السدة غابرييلا على ضيوفها للتعرف سراعاً وشكلياً حتى توقفت عند إحداهن اختارتها جليسة لي وكان التعريف هذه المرة وئيداً جلياً : هي السيدة « غلاديس فون ايشينغ ماكاريون » ، وأضافت أنها من خيرة صديقاتها وأوثقهن مودة وعهداً .

عجبت لهذا الاسم يجمع بين « فون ايشينغ » الجرماني و « ماكاريون » اللاتيني وقلت لعله من باب التنكر أيضاً ! والحق أن مضيفتي راعتني في اختيار جليستي فقد بدت لي

السيدة غلاديس أنيسة حبابة يتلألأ على وجهها بريق من البهاء ما نال منه خريف العمر ، والجمال الأصيل يحلو مع الأيام . وتبين لي من حديثها أنها عركت الحياة وعركتها ثم إنها لم تكن ترتدي زي ملكة ولا امبراطورة بل عمدت إلى زي ريفي تقليدي تلبسه نساء الفرسان رعاة البقر ، أو « الغاووشو » كما يدعونهم ، في ولاية « ريوغراندي » من أقصى الجنوب من البرازيل وفي البطاح المجاورة من الأرجنتين .

وعلى ذكر الريف أشارت جليستي إلى أنها تتردد على ريو دو جانيرو بين الحين والحين ولكنها تقطن في مزرعة متواضعة في ضواحي مدينة « بللو اورزنتي » حاضرة ولاية « ميناس » في أواسط البرازيل حيث تعنى بزراعة صنف ممتاز من فاكهة « المانغو » يدعى « سوزينيو » أي الوحيد .وهو نادر طيب المذاق يتخطفه العارفون والهواة .

* * * * *

كانت مضيفتنا غابرييلا تتردد علينا وتخصنا بعنايتها بل شعرت أنها تراقبنا . وفي إحدى طلاتها اقترحت السيدة غلاديس أن نقضي في مزرعتها بضعة أيام للاستجمام في جو الريف الهادىء بعد صخب الكارنفال وهرجه ومرجه . ودعمت غابرييلا الدعوة وقالت إن غلاديس ربة منزل ممتازة وإننا في موسم « المانغو » وهي فرصة لنتذوق « السوزينيو » لا تدانيه أصناف المانغو المعروفة في البرازيل ومصر والهند .

بعد حين دعت السيدة غابرييلا ضيوفها إلى القاعة المجاورة لتناول ما تيسر ولمشاهدة المجموعة الجديدة من أحجار الماس التي أتى بها زوجها ماريو في رحلتهما الأخيرة .

دهشت لهذا الجمع بين المقصف وأحجار الماس ، أو كما يقولون بين الزيارة والتجارة ، والظاهر أن عرض أحجار الماس هو بيت القصيد من الحفل كله . حتى في موسم الكارنفال لا تنقطع غابرييلا عن تسويق بضاعتها . ألم أقل لك إنها تعرف كيف تؤكل الكتف ؟

وفي القاعة المجاورة تحلقت السيدات حول خزانة أنيقة الصنع استلقت على رفوفها أحجار الماس فوق خمائل من القطيفة الزرقاء وكأنها نجوم تتلألأ في سماء صاحية ، وأخذن يتحدثن كلهن في آن واحد وغابرييلا موزعة بينهن . أما الرجال فقد أقبلوا على طيبات المقصف وشرابه ينظرون من طرف خفي قلق إلى ما يدور حول خزانة الماس ويحسبون أن هذه الدعوة ستكلفهم غالياً !

* * * * *

انقضى موسم الكارنفال سراعاً ، وكما تقول أغنية شعبية شائعة في البرازيل : أيام المرح واللهو قصيرة أما أيام المشاكل والهموم فلا آخر لها ، وغادرت ريود وجانيرو صحبة غابرييلا وماريو تلبية لدعوة السيدة غلاديس في مزرعتها من ولاية ميناس .

ولاية ميناس هذه في الصدارة من ولايات البرازيل ومن أغناها وهي مشهورة بمناجمها وبالثروات المعدنية الدفينة فيها ، وحاضرتها « بللو اورزيني » أي الأفق الجميل ، من أجمل مدن القارة وأطيبها هواء .

قصدنا إليها على متن طائرة هي أجدر بمتحف الطيران : ذات محرك وحيد ومقاعد عشرة تتلاعب بها الأهواء والأجواء ، فلما أطلت على التلال الخضراء المحيطة بمدينة الأفق الجميل أدركت لماذا اختارها أدباء المهجر والشعراء مقراً .

* * * * *

كانت السيدة غلاديس في استقبالنا في المطار المحلي كما توقعنا ولكن المفاجأة أنها بدت غير تلك السيدة غلاديس التي عرفتها في حفل ريود وجانيرو : كانت ترتدي ثياباً أنيقة فاخرة تعرف منذ النظرة الأولى أنها لم تصنع في ولاية ميناس ولا في البرازيل وإنما وردت من إحدى بيوتات الأزياء العالمية في باريز أو نيويورك . زاد في روعة هذه الثياب مجموعة متناسقة من عقد وسوار وقرطين وخاتم عليه حجر من الماس يبهر العين في قدره وإشعاعه . وقلت في نفسي لا ريب أن غابرييلا هي الوسيط في تدبر هذه الثياب والمجوهرات .

* * * * *

غادرنا بهو المطار فإذا بسيارة « كاديلاك » تنتظرنا وبجانبها ينتصب سائق أسود البشرة عملاق . ومثل هذه السيارة الفخمة نادر في البرازيل بحكم نظم استيراد السيارات ، وإنما يتسرب منها عدد قليل في السوق السوداء عن طريق بعض السفارات الأجنبية .

بلغنا المقر فكانت المفاجأة الكبرى : أين هذا المقر الرحب الرفيع من تلك « المزرعة المتواضعة » التي حدثتني عنها في حفل ريو ! بوابة عالية العماد وحديقة مترامية وفي وسطها دارة هي أقرب إلى القصر في أدراج من الرخام الإيطالي وجدران من الخشب الثمين وأثاث من الأصيل النادر والتحف والسجاد ... في أميركا اللاتينية قلة تسبح في النعيم وجماهير تشقى في الجحيم ، والظاهر أن مضيفتي التي خيل إلي في ريو أنها تعيش من وراء زراعة فاكهة

« المانغو » ، الظاهر أنها في الذروة من أهل النعيم .

* * * * *

لفت نظري في صدر البهو الرئيسي صورة زيتية كبيرة في إطار مذهب فاخر لرجل كهل جرماني السمات حاول الفنان ما استطاع أن يصلح من عينيه الصغيرتين الغائرتين ومن كتفيه الضيقين الهابطين ، ويبدو مما تجمع على وجهه من الثنايا والأخاديد أنه جاهد في حياته الفانية كثيراً . وقلت في نفسي ما شأن هذا الرجل في هذا المقر ، ثم ذكرت ما جاء في اسم السيدة : « فون ايشينغ » وازددت عجباً !

ولما هممنا بالانصراف كل إلى مقصورته لبعض الراحة من عناء تلك الطائرة اللعوب أعلمتنا السيدة غلاديس أن العشاء سيكون في تمام الساعة الثامنة وفي الهواء الطلق .

* * * * *

ما أنسى هذا العشاء تحت القبة الزرقاء في قلب البرازيل . عادت السيدة غلاديس إلى الزي الريفي الذي كانت ترتديه في حفل ريو فقد أرادت أن يتسم العشاء وجوه بما عهده الفرسان رعاة البقر « الغاووشو » في بطاح « البامباس » ، فجاء الطعام مقتصراً على كتل من لحم البقر تشوى فوق نيران الحطب في العراء ثم تقطع بخناجر مرصعة القبضات لامعة النصال ويشرب معها شاي « ماتا » من آنية تقليدية تدعى « بومبا » ، والخنجر والبومبا هذان عزيزان على الفارس الراعي « الغاووشو » يرافقانه في الحل والترحال وقد يغالي في تزيينهما بالنقوش وترصيعهما بالأحجار الكريمة .

* * * * *

طال السهر عقب العشاء ومن فوقنا النجوم في سماء « الأفق الجميل » تحسب قطوفها دانية . وشاي « ماتا » قليله منعش ولكن لكثيره فعل تخدير خفيف تلذ معه الغفوة والأحلام . ودار الحديث حول موضوعات شتى ولكنا تحاشينا بيت القصيد : ما شأن هذه السيدة وهذا الثراء من حولها ؟ حتى إذا لم أعد أطيق صبراً قلت للسيدة غلاديس :

— إنني أهوى الأزياء الريفية التقليدية ، وزي الغاووشو هذا ظريف طريف ولكنني أتساءل متى كان للغاووشو أن يتخلى عن جواده إلى سيارة الكاديلاك وعن بطاح البامباس إلى عالي القصور ؟

— توقعت تساؤلك هذا فإنما دبرت أمر هذه الزيارة بالاتفاق مع غابرييلا كيما يتاح لي أن أروي لك في هذا الريف الهادىء قصة حياتي وما أنا فيه فما كان جو حفل الكارنفال في ريو دو جانيرو ليصلح لمثل هذا الحديث .

واستمعت إليها تقول :

* * * * *

من عادتي أن أذهب إلى ريو لاستقبال غابرييلا وزوجها في كل مرة يعودان فيها من رحلتهما السنوية إلى جنوب أفريقيا ، لا من قبيل الحفاوة والود فحسب بل لنا في هذا مأرب آخر : ذلك أن غابرييلا درجت على أن تحمل إلي في كل رحلة طائفة من الحاجات الطريفة التي لا تتيسر في البرازيل من ملبس وأدوات زينة ومجوهرات وهي رفيعة الذوق وخبيرة بالبيوتات الشهيرة في المدن الكبرى في أوروبا . وإن لي في ريو صديقاً ذا صلات بإدارة المرفأ يرافقني إليه ونغادره مع غابرييلا وزوجها فلا يخضعان لمشاكل الجمرك والرقابة وهما يفيدان من هذا كثيراً لما يوفرانه من الرسوم الطائلة على أحجار الماس التي يحملانها !

وقفت على رصيف المرفأ أرقب دنو الباخرة « كريستوف كولومبوس » حتى إذا ألقت مراسيها وهبط منها ماريو وزوجه رأيتهما يودعانك . تأملت فيك وخفق قلبي ، والمرأة قلبها دليلها ، وفي شعور عفوي بدا لي أن في مقدمك خير ما حملته غابرييلا إلي في زمانها ، بل خير ما حمل « كريستوف كولومبوس » وخلفاؤه من بعده إلى العالم الجديد !

سألت غابرييلا عنك فروت لي عهدكم في الباخرة وأضافت أنك ستحضر حفل الكارنفال الذي تقيمه في منزلها فقلت إنها فرصة مناسبة للتعارف ومن ثم عمدنا إلى تدبير زيارة هذه « المزرعة المتواضعة » كيما يتاح لنا الاجتماع .

* * * * *

وفي هدوء الليل ، ونيران الشواء من حولنا إلى خمود ونجوم السماء من فوقنا في بريقها الأبدي ، تابعت قولها :

— الذي علمته من غابرييلا أنك من أبناء المغرب وما أعرف عن المغرب الكثير ولكن يبدو لي أن بين بلدينا على بعد المزار والمحيط الأطلسي بينهما شبهاً أو قرابة : في جنوب المغرب تنبسط الصحراء في رمالها وبواديها وفي أعرابها وقوافلها . تصور لو أن بوادي الرمال هذه

انقلبت مروجاً خضراء من العشب تجري خلالها السواقي والنهيرات ، وأن قوافل الإبل تحولت إلى قطعان من الأبقار لا عداد لها ، وأن الأعراب صاروا إلى فرسان رعاة ... هذه هي « البامباس » في أقصى الجنوب من البرازيل وما يجاورها من الأرجنتين ، فيها ولدت ونشأت وامتطيت ظهر الجواد قبل أن يستوي سيري على وجه الأرض .

* * * * *

في بطاح البامباس هذه ينعم بنو قومي « الغاووشو » بحياة فيها الكرامة وغنى النفس . يعيش المرء حراً رافع الرأس لا يعرف قيوداً اصطنعها الإنسان في الحواضر ، وله من خيراتها اكتفاء فلا مشاغل ولا هموم ، ثم إن في خلق فروسيتها المطبوع على المروءة والشجاعة والكرم مجتمعاً طاهراً بريئاً .

في رحاب البامباس الطلقة الفسيحة قضيت سني طفولتي في أقرب ما يكون إلى سعادة الحيوان الأليف ومرحه ، وليتني قضيت فيها العمر كله فقد حدث في منتصف العشرينات أن أتى على البامباس موجات متتالية من الجفاف ما عهد الناس مثلها وليس لها في طول أمدها سابقة ، جف معها الزرع والضرع وهلكت عشرات الألوف من الماشية فهام « الغاووشو » على وجوههم وراء قطرة الماء ولقمة العيش .

* * * * *

كان من جراء هذا الجفاف أن ساءت الأحوال في الولايات الزراعية المجاورة فلم يكن بد من اللجوء إلى المناطق الصناعية وكان نصيب أبي وجماعة من أصحابه أن وجهوا إلى ولاية « ميناس » هذه للعمل في منجم للحديد فأقمنا في حي محروم من ضواحي « بللو اورزينتي » اكتظت فيه أسراب اللاجئين .

هؤلاء الفرسان الرعاة الذين عهدوا الحرية في رحاب البامباس المترامية الأطراف وجدوا أنفسهم يعملون كالعبيد في منجم ويكدحون كالحشرات في أنفاقه . كان عزاؤهم الوحيد أن كارثة الجفاف عابرة وأنهم سيعودون إلى جناتهم الخضراء في القريب .

ولكن شاءت الأقدار ألا يشهدوا جناتهم تلك مرة أخرى فقد حدث انهيار في المنجم كان أبي ورفاقه من ضحاياه . قيل إن إهمال هؤلاء « الغاووشو » وجهلهم بشؤون المنجم

أديا إلى هذا الانهيار ، ولكن الواقع أن مثل هذا الحادث كان يقع في مناجم الولاية كل عام مرة أو مرات .

* * * * *

أثار هذا الحادث الرأي العام فقد نشرت إحدى الصحف اليسارية في ريو دو جانيرو تحقيقاً طويلاً تثبت فيه أن أسباب الانهيارات المتوالية في المناجم ترجع إلى أن وسائل الصيانة والسلامة مفقودة لا تعنى بها إدارات المناجم توفيراً واقتصاداً بينما تفرط في أرواح العمال المساكين .

تجاه هذه الحملة عمدت إدارة المنجم الذي كان يعمل فيه أبي وجماعته إلى تدابير ليس لها سابق في مناجم البرازيل إذ خصصت لأسر الضحايا رواتب شهرية في حدود كفاف العيش وتكفلت بالتعليم الإبتدائي للأيتام ، وكان نصيبي أن حشرت في مدرسة ابتدائية نائية . وما أرغب في الثناء على نفسي ولكن الواقع أن مديرة هذه المدرسة لحظت تفوقي في الدراسة ، وكانت على صلة ببعض ذوي الشأن في الولاية ، فتوسطت حين تخرجت من مدرستها كيما يتاح لي الانتساب إلى مدرسة لتحضير المعلمات للأطفال .

ما عرفنا في البامباس المدرسة بالمعنى الصحيح ونحن في شبه ترحال دائم ، وقلَّ من كان منا يحسن القراءة والكتابة وما شعرنا بحاجة إليهما . أوليس من عبث الأقدار أنني أنا الغاووشة اليتيمة التي خلقت لصحبة الجياد في الآفاق الواسعة ، أصبح معلمة حبيسة بين أربعة جدران أجتر مع طائفة من البنات حروف الأبجدية وقواعد الجمع والطرح ؟

ولكنك سترى أن لهذه الأقدار في حياتي عبثاً هو العجب العجاب !

* * * * *

لا أود أن أطيل عليك في التعرض لشؤون عامة حول بلادي ولكن لا بد من الأقل لبيان ما سآتي عليه . تعرف أن البرازيل من أغنى بلاد الدنيا في ثرواتها الطبيعية فقد أودع الخالق الوهاب فيها على وجه الأرض وتحت الثرى ما لا ينبغي لبلد آخر ، ولكننا ، نحن البرازيليين ، ما قدّرنا هذه النعم حق قدرها فما عرف منها إلا القليل وما استثمر إلا الأقل .

ويغلب أن المستثمرين دخلاء على البلاد فلا ينال أهله إلا مصة الوشل وإنما تشتم الشركات الكبرى من غرب أوروبا عبر المحيط أو من شمال أميركا فوق الجبال ، رائحة المغانم في أنوف

طويلة مرهفة في حاسة الشم فتدلف إلى البرازيل وتعب من خيراتها عباً بغير حساب .

في طليعة هذه الشركات واحدة تدعى « وستهوف — ايشينغ » وهي عالمية في ميدان أعمالها في استثمار المناجم من الألزاس في فرنسا إلى استوريا في إسبانيا ومن ليبيريا في أفريقيا إلى أندونيزيا ، وهي ألمانية في رؤوس أموالها وفي القائمين عليها وإنما اتخذت اللكسمبورغ مقراً لمكتبها الرئيسي لأن في وضع هذه الأمارة ونظمها المالية السمحة مجالات للتهرب من جزء كبير من الضرائب المتوجبة في بلاد الاستثمار .

* * * * *

نالت هذه الشركة لحوالي عشرين سنة خلت امتيازها الأول في استثمار منجم لفلزات الحديد في ولاية ميناس هذه وتطلعت من حوله إلى أحوال المناجم في البرازيل فتبين لها منذ البداية أن فيها غاية المنى : مناجم أوروبا متعبة قادمة على نفاد بينما مناجم البرازيل بكر غنية ذات فلزات معدنية من المرتبة العليا في أعماق معتدلة يتيسر استثمارها ، واليد العاملة في البرازيل متوفرة رخيصة مطواعة ، ونظم الضرائب مرنة هينة ثم إن رقابة السلطات لا شأن لها أما الضمانات الاجتماعية للعمال فلا ترد اطلاقاً .

وهكذا ركزت شركة « وستهوف — ايشينغ » نشاطها في البرازيل ورأت أن توفد أحد كبار أصحابها البارون « ماكسيم فون إيشينغ » ليشرف عن كثب على مصالحها فاتخذ مقراً له في مدينتنا « بللو اورزنتي » ، وهو الرجل الذي رأيت صورته معلقة في البهو الرئيسي ... لا تعجب ... سآتيك بأخباره .

طوال العشرين سنة الماضية توالى على ولاية ميناس كثير من الحكام منهم من فرضته السلطات الاتحادية في العاصمة ريو ومنهم من جاء عن طريق الانتخابات المحلية ، ولكن المعروف أن الحاكم الفعلي المقيم هو البارون فون ايشينغ يمسك بمقدرات الولاية الاقتصادية وله في شؤونها العامة الكلمة العليا والأخيرة .

* * * * *

التهافت على البرازيل لا يقتصر على شركات الأعمال الكبرى بل تشارك فيه إرساليات التبشير الدينية . هذه تبغي حسن ثواب الآخرة وتلك مغانم الحياة الدنيا ، فما يزال في البرازيل قبائل عديدة من سكانها الأصيلين القدامى ، أو الهنود الحمر كما يسمونهم ، يعيشون على

الفطرة ويعتصمون في الغابات والأدغال هرباً من ملاحقة الرجل الأبيض ، ولا يعرف هؤلاء ديناً سماوياً وبالتالي تتزاحم الكنيستان الكاثوليكية والبروتستانتية على كسبهم إلى حظيرتها .

ولبعض هؤلاء المبشرين في سيرتهم ما يدعو إلى العجب والإعجاب : يندفعون وراء الهنود في أقسى مناطق الأرض مناخاً واشقاها عيشاً ويتعرضون لطائفة من الحميات والأمراض ولشرور الوحوش والهوام ... لا يالون وهمهم تدبير الأحابيل للاتصال بالهنود والإلمام بطرف من لغتهم كيما يحملوا إليهم رسالة الإنجيل ومبادىء المدنية الحديثة .

والمبشرون في هذا يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ولكن الراجح أنه لو ترك هؤلاء البدائيون وشأنهم لكان خيراً لهم وأبقى ، فما عرفوا من صلاتهم بالرجل الأبيض إلا المطاردة لاغتصاب أراضيهم ، وما نالهم إلا عدوى الأمراض والنزعة إلى الشراب .

* * * * *

من هؤلاء المبشرين في ولاية « ماتوغروسو » في الأمازوناس اشتهر مبشر يدعى الأب « ماك لونلي » قدم منذ حوالي ثلاثين عاماً من إيرلندا واندفع في أداء رسالته . الغريب أن العنصر الإرلندي يغلب على المبشرين حتى ليقال في شيء من الدعابة إن إيرلندا تصدر أبنائها إلى ما وراء البحار ليكونوا رجال شرطة في نيويورك أو مبشرين في أميركا اللاتينية !

وفي ذات يوم كان الأب ماك لونلي على متن قارب على أحد روافد نهر الأمازون وهي غدارة في الغالب فانقلب به القارب وقضى إلى رحمة الله . وكان هذا المبشر يعيش مع زوجه المسز ماري التي شاركته في مخاطر حياته كلها حلاً وترحالاً ولم تكن تقل حماساً وإيماناً فوجدت نفسها وحيدة بعد مماته ، وفي دافع من الحنين إلى الوطن رأت أن تعود إلى إيرلندا بعد هذا الغياب الطويل لتقضي فيها أيامها الأخيرة .

لم يكن بمقدور المسز ماري أن تتدبر نفقات هذه السفرة ، والمبشرون أقرب إلى الفقر ، فأشار عليها أحدهم بأن تكتب إلى البارون ايشينغ تشرح له وضعها وترجو العون المادي لعودتها إلى بلدها . واستجاب البارون وحزمت المسز ماري حقيبتها العتيقة الوحيدة للسفر إلى ريود جانيرو لتستقل منها الباخرة إلى أوروبا ، ثم خطر لها أن تقضي في طريقها يومين في « بللو اورزنتي » ضيفة على راهبات مواطنات لها يعملن في دار للأيتام فيها ولتقابل البارون وتشكر له صنيعه .

* * * * *

كان البارون في مكتبه في غمرة من مشاغله حين ذكرت له السكرتيرة أن أرملة المبشر الإرلندي قدمت وترغب في مقابلته فطلب إلى أحد مساعديه أن يقابلها ويصرفها بالحسنى ، ولكن المسز ماري أصرت على مقابلة البارون بالذات لتدعو له بالخير وطول العمر ولن يستغرق الأمر بضع دقائق .

دخلت المسز ماري على البارون فتطلع فيها . كان يحلي وجهها بريق نور الإيمان وبقية من جمال الإرلنديات المثير ما أتى عليه مقامها الطويل في الأمازوناس . وكان البارون قد تجاوز الستين وهو أعزب فما كان في انهماكه في أعماله ورحلاته ليفكر في رفيقة الحياة ، وفجأة دون مقدمة ولا استهلال عرض عليها الزواج ! يبدو أن هؤلاء العزاب المزمنين يترددون في الزواج إذا أمعنوا فيه الفكر والروية وإنما السبيل الوحيد لدخولهم القفص الذهبي هو أن يقفزوا إليه فوراً معصوبي العينين ليجدوا أنفسهم في الأمر الواقع .

كانت المسز ماري ثقيلة السمع بعض الشيء فالتبس عليها الأمر وحسبت أنها واهمة فيما سمعت عن عرض الزواج ، أما السكرتيرة التي حضرت المقابلة فصعقت لا تصدق أذنيها .

تم عقد القران في كنيسة صغيرة ملحقة بدار الأيتام للراهبات الإرلنديات واقتصر على حفل في غاية من البساطة ولكن ظل القوم في البرازيل وفي اللكسمبورغ يتحدثون عن هذا القران المفاجىء الطريف يجمع بين البارون الثري الكبير وبين أرملة المبشر الإرلندي وكلاهما في حدود السبعين .

* * * * *

لم يبدل هذا القران من سيرة الزوجين أو فلنقل العروسين : ظل البارون منصرفاً إلى دنيا أعماله ورحلاته وظلت المسز ماري على تواضعها تعكف على العبادة والصلاة عازفة عن صلات المجتمع قلما تزور أو تزار . وعزّ على البارون أن تبقى زوجه لوحدها طوال رحلاته الكثيرة فرأى أن تكون لها وصيفة . واتفق أن أحد المقربين من البارون كانت له بنت من تلميذاتي سبق أن حدثته عني مراراً فرشحني لدى البارون لهذه المهمة فلما عرضت عليّ قبلت من فوري إذ لا أكتمك أنني مللت من المدرسة ومن فيها .

* * * * *

كان هذا تحولاً جذرياً في مجرى حياتي فأين القصر الذي انتقلت إليه من البيت المتواضع في الحي المحروم الذي كنت فيه ، وأين مهام الوصيفة الهينة من عملي المدرسي المضني الرتيب ؟

وجدت في المسز ماري خير من عرفت طيبة وصلاحاً وقد اعتبرتني كأختها الصغرى في صلاتنا واقتصر عملي على المؤانسة والتحاور في جلسات طويلة سيما وأن البارون يغيب كثيراً في رحلاته فإذا ما قدم انزوى غالباً في مكتبه .

والشائع عن الإرلنديين أنهم يعمدون إلى العزلة والاقتصاد في الحديث ولكن المسز ماري كانت جليسة أنيسة ومحدثة بارعة وعندها من مقامها في الأمازوناس خزائن من الذكريات والطرائف بدت لي أقرب إلى الأساطير . والعجيب أن هذه السيدة الإرلندية تعرف عن بلادي ما لم يكن يخطر لي في بال وأنا بنت البرازيل ، ولكن أين سهول البامباس في الجنوب التي عهدتها ، من غابات الأمازوناس في الشمال ؟ عالمان اثنان يختلفان في كل شيء ويفصل بينهما أربعة آلاف من الكيلومترات !

* * * * *

كنت أستمع إليها تحدثني عما شهدته في الآمازوناس من العجيب العجاب : عن نوع من النمل الكبير في حجم الدبور هو أدهى من الجراد يزحف في حشود بالغة ويأتي على الأخضر واليابس في كل ما يلقاه ولا سبيل لوقفه .

حدثتني عن ذكاء سكان الآمازوناس الأصيلين وأحابيلهم في الصيد والقنص ولا سيما عن سم زعاف يغمسون فيه رؤوس نبالهم فإذا لامست طريدة صعقتها لفورها ، وما عرف الناس حتى اليوم سر هذا السم .

حدثتني عن نوع من البعوض إذا لسعت إنساناً خلفت ندبة على البشرة لا خلاص منها .

حدثتني عن نهر سالومون أي نهر سليمان ونهر نيغرو أي النهر الأسود ، يلتقيان على مقربة من مدينة « بيليم » أي بيت لحم ، ليشكلا معاً نهر الأمازون ولكنهما لا يمتزجان : يجري الأول في مياهه الصافية الرائعة وإلى جنبه النهر الآخر في مياهه العكرة الكدرة يتجاوران ولا يبغيان ، ويقصد الناس على ظهر السفن إلى موضع ملتقى النهرين ليشهدوا أعجوبة الطبيعة هذه .

حدثتني عن حيوان شبيه بالفهد يستطيب لحم البشر ويحوم حول الأكواخ في تحايل ومكر وغدر لاغتيال الأطفال .

حدثتني عن سكان الأمازوناس المقيمين ، أو « الكابولكو » كما يدعونهم ، وهم خلس خليط من الدم الهندي الأحمر الأميركي القديم ومن الدم الأسود الأفريقي الدخيل لا يتخلون عن بنادقهم دفعاً لأذى الوحوش ويعيشون في شظف وفي مناخ لا يطاق فلا يتجاوز عمر الواحد منهم خمسة وثلاثين عاماً .

حدثتني عن نوع من السمك أشبه بالسردين يعيش في الماء العذب من روافد الأمازون إذا غطس أحدهم يده في الماء نهش لحمها نهشاً في سرعة البرق وطلعت من الماء مجرد عظام .

حدثتني عن الباعة المتجولين في تلك الربوع ، وبعضهم من المهاجرين من سورية ولبنان ، يتحدون الأخطار متنقلين على قوارب خفيفة فوق أنهار غدارة ، وهي وسيلة الانتقال الوحيدة ، ليبيعوا « الكابولكو » ما يحتاجون إليه من أوان وأقمشة وذخيرة للبنادق وحلوى ... ويعودوا بما جمع هؤلاء من عصير أشجار الكاوتشوك وجلود الحيوانات .

* * * * *

طوال أحاديث المسز ماري عن الأمازوناس وأهوالها كان يساورني سؤال فيه شيء من الإحراج لم أجرأ على طرحه ولكنني لم أتمالك يوماً من سؤالها :

— كيف يقدم مخلوق عاقل على مغادرة إرلندا حراً مختاراً ليعيش في هذه الأقطار التي يدعونها جهنم الخضراء ؟ .

كان جوابها فورياً وقاطعاً مانعاً : إنه الإيمان يا غلاديس ، وأوضحت تقول :

— لقد آمنا بما جاء في الكتاب الأقدس ومن واجبنا نشر رسالته لا تثنينا المكاره والمخاطر في جهنم الخضراء أو الحمراء ولسنا نعبأ بما يقال عن التبشير والمبشرين من أن هؤلاء البدائيين في غنى عنهم ، وأن المساوىء حاقت بهم من جرائهم واختل توازن حياتهم ، وأن بعض المبشرين من هواة المغامرات ، وأن التبشير نوع من المباراة بين الكنيستين الكاثوليكية والإنجيلية لاكتساب هؤلاء المساكين ... كل هذا افتراء ما زعزع من إيماننا في أن رسالة الإنجيل تخرجهم من الظلمات إلى النور .

* * * * *

أحاديثها كلها كانت موضع إعجابي وعجبي ولكن أبلغ ما أثر بي هو حديثها عن زوجها الأول . الأب : « ادوار ماك لونلي » ، أو « أدي » كما تدعوه تحبباً . لقد مات الرجل وفات

وتزوجت من بعده وصارت البارونة سيدة القصر ولكنها ما تزال تعيش في ذكراه ، في امتداد حياته ، في مدار نجمه الآفل ، وكأن الزيجة الثانية أمر شكلي عارض وأن البارون على الهامش غريب الوجه واليد واللسان .

تأكد لي من حديثها أنها و « أدي » تبادلا حباً قوياً جامحاً جعل من جهنم الأمازوناس جنة ونعيماً . وفي القلب المفعم بالإيمان مكان للحب الصادق . والإيمان والحب جوهران يأتلفان . أوليس الإيمان حباً أسمى لمثل أعلى ليس كمثله شيء ؟ .

عواقب الإقامة في الأمازوناس لا مناص منها ولا رحمة . ذلك المناخ الاستوائيُّ الحار الرطب الثقيل يقوض جسم الإنسان ويهده هداً ، ولا غرابة في أن لا يتجاوز عمر سكان الأمازوناس المقيمين « الكابولكو » خمسة وثلاثين عاماً . والراجح أن المسز ماري كانت في نشأتها ذات بنية قوية صامدة لولاها لقضت من زمان .

بدأت تظهر عليها أعراض الإعياء وتزداد نحولاً فعمدت إلى مخدعها تقضي الساعات ليل نهار في تلاوة الإنجيل وعهدت إلي بالإشراف على شؤون القصر كلها .

كنت أجالسها صامتة أستمع إلى تلاوتها . وساءت صحتها كثيراً ودنت خاتمة المطاف وبدت على وجهها سمات الرضوان وكأنها تسعد لقرب لقاء الله ومن بعده « أدي » الزوج الأول الحق الحبيب .

* * * * *

وفقاً لوصيتها نقل جثمانها إلى قرب مصب نهر « شنغو » من روافد الأمازون حيث يرقد زوجها الأب ماك لونلي . والعجيب أنه اختار موقع قبره هذا عند أقدام دوحة كبيرة من أشجار « التويوما » وهي من مقدسات الهنود الحمر لا يقربها الناس ويعتقدون أن من يمسها وما حولها بسوء تصيبه وأحفاده اللعنة الأبدية وهكذا يظل قبر المبشر وزوجه في حماية معتقد وثني قديم !

* * * * *

لم يعد مبرر لبقائي في القصر ولا أكتمك أنه غمَّ علي لوجوب مغادرته والعودة إلى التعليم في المدرسة ولما تثير عودتي هذه من تهكم المعلمات وثرثرة البنات . قصدت إلى البارون

أستأذنه بالانصراف قبل أن يصرفني ويبدو أنه طبع على المفاجآت فإذا به ... يعرض عليّ الزواج !

ارتج عليّ فما كان ليدور في حلمي أنني سأصبح البارونة يوماً وأخذت بي دوافع من الطموح والغرور نسيت معها أو تناسيت أن البارون يكبرني بحوالي خمسة وثلاثين عاماً وأنه أقصر مني بشبر في عينين صغيرتين غائرتين وكتفين ضيقين هابطين . إذا نزل القدر عمي البصر . وظن البارون أنني مترددة واقترح أن أفكر في الأمر وأن أجيبه بعد حين ، ولكنني قبلت على الفور خشية أن يبدل البارون رأيه ! أعماق النفس الإنسانية في ظلماتها وما يساورها من أهواء لا يدركها إلا خالقها .

* * * * *

كان شهر العسل مريراً إن صح أنه كان هناك أي عسل ! سرعان ما تبينت لي جلية الواقع وما هدف إليه البارون : كان الزواج شكلياً فقد سبق أن ارتاح البارون في السنوات الأخيرة إلى وجود سيدة تشرف على شؤون القصر وهو يثق بي ولا يريد في هذا السن أن يتعرف إلى وجه جديد فحرص على بقائي في القصر وإنما عمد إلى الزواج ليضفي على مقامي فيه صبغة شرعية وليقطع دابر ألسنة السوء .

* * * * *

ما سبق أن سمعته من المسز ماري يرحمها الله عن الآمازوناس فيه العجب العجاب ولكن ما شهدته في حياة زوجي الجديد أعجب بكثير : كنت أعتقد أن الثراء وسيلة للتمتع بنعم الله والطيبات من الرزق وإذا بالبارون الثري الكبير أقل الناس تمتعاً وأكثرهم تعباً . يغادر مع طلوع الشمس إلى مكتبه ويعود في المساء متأبطاً حقيبة منتفخة أوداجها ويأوي إلى مخدعه يقلب في أوراقها ، وفي وسط الليل أو مطلع الفجر يعمد إلى مخابرات هاتفية نظراً لاختلاف التوقيت مع غرب أوروبا واليابان وفي الصباح ينشر أوراقه على مائدة الإفطار وهو يتناول قدح الشاي . لا يتعاطى التدخين ولا الشراب وما عرفت له هواية لا مطالعة ولا موسيقا ولا رياضة ... أما العلاقات الجنسية فقد فات أوانها وما أظن أنه عرف امرأة في حياته . دأب نملة ومعيشة ناسك .

يبدو أن رجال الأعمال هؤلاء يسعون إلى الثراء ثم إلى مزيد من الثراء من أجل الثراء ،

وإلى النجاح ثم إلى مزيد من النجاح من أجل النجاح . قد تكون هواية من قبيل جمع علب الثقاب الفارغة !

* * * * *

وفي صباح يوم أقبل البارون يودعني وهو في سبيل رحلة إلى أوروبا . وما أكثر رحلاته رغم تحذير الأطباء ونصحه بالخلود إلى الراحة فقد وهن منه القلب . ولحظ البارون امتعاضي فإذا به ، وهو أبو المفاجآت ، يبادرني بقوله :

ــ اسمعي يا غلاديس يا عزيزتي . أعترف أنني ظلمتك وظلمت نفسي . إنني مغادر إلى باريز هذه المرة في مهمة ذات شأن هي صفقة العمر أعتزل من بعدها العمل وننتقل إلى دارة لي في « سان موريتز » في سويسرا لنقضي فصل الصيف فقد آن لنا أن نعيش عيشاً سوياً .

ما سبق أن أطلعني على شيء من أعماله ولا أنا رغبت في الإطلاع وإذا به يتحدث إليّ عن صفقة العمر هذه في إسهاب ونشوة وحماس .

* * * * *

كان يقيم في الجزائر قبل استقلالها بضعة آلاف من كبار الملاكين المزارعين من أصل إفرنسي تملكوا ، في تواطىء مع السلطات الاستعمارية ، خير الأراضي تربة وموقعاً وأفادوا منها خيراً وفيراً وطاب لهم المقام والبلد واعتبروا أنفسهم من الجزائر وإنما الجزائر في نظرهم مقاطعة إفرنسية ، فلما نشبت ثورة الجزائر كانوا أشد الناس نقمة عليها داعين إلى القمع والإرهاب وعاملين في الفتن والمؤامرات فلما استقلت الجزائر وكان عليهم الرحيل جن جنونهم فوعدتهم الحكومة الإفرنسية بتعويضات مالية عما خلفوا من أملاك وراءهم ظهرياً .

قدم كبارهم إلى جنوب فرنسا فلم يطيقوا المقام إذ ليس هنالك أراض واسعة للاستثمار الزراعي الذي عهدوه . ثم إنهم كانوا سادة مستكبرين في الجزائر فإذا بهم منبوذون في وطنهم الأول لا يرتاح الإفرنسيون المقيمون إليهم ويعتبرونهم دخلاء عنيفي الطبع مثيري المشاكل حتى لقبوهم في شيء من الإزدراء « ذوي الأقدام السود » . لكل هذا اتجهت أنظارهم إلى ما وراء البحار .

* * * * *

جاب وفد منهم أقطار أميركا الجنوبية فوقع اختيارهم على البرازيل فيها أراض واسعة شاسعة بكر ذات تربة طيبة وفيرة المياه يمكن استملاكها بأسعار جد معتدلة نسبياً . واتفق أن البارون كان يملك أراض في ولاية « بارانا » في أواسط البرازيل ممتازة في كل شيء ولكنه أهملها ولم يفد منها كثيراً فما كانت الزراعة لتستهويه وهو الصناعي الكبير ، فتم الاتفاق على بيعها لقاء عشرين مليون دولار تدفعها الخزانة الإفرنسية مباشرة لحساب البارون في مصرف سويسري .

هذه هي صفقة العمر كما قال والتي رحل لإنجازها في باريز .

* * * * *

طال غيابه فقد كان المتوقع أن لا يتجاوز أسبوعاً وكان يهتف إليّ في كل ليلة يشير إلى عقبات طارئة لم تكن في البال واجهته في مهمته فقد أبدت السلطات الإفرنسية رغبتها في أن يوظف البارون العشرين مليون دولار في مشروع يفيد الاقتصاد الإفرنسي ، كما أن السلطات البرازيلية لم تنظر بعين الرضا إلى انتقال ملكية هذه الأراضي إلى أيد أجنبية ولا سيما من طراز « ذوي الأقدام السود » في صفقة يعمل الطرفان المتعاقدان على غمض حقوق الخزينة البرازيلية فيها .

وفي فجر يوم يدق جرس الهاتف وإذا بمساعد البارون المرافق له في باريز يخبرني أن البارون أصابته نوبة قلبية وهو في جلسة للتفاوض نقل على أثرها إلى المستشفى حيث أسلم الروح . لم يتح له العمر إنجاز صفقة العمر .

* * * * *

كنت الوارث الوحيد وبين ليلة وضحاها وجدت نفسي أملك ثروة ما حسبت أنها تبلغ هذا القدر البليغ : ودائع في المصارف ، أسهم في الشركات ، حصص في المناجم والمصانع ، أراضي في البرازيل ، دارة على شاطىء كوباكابانا في ريو دو جانيرو ، وأخرى في سان مورتيز في سويسرا فضلاً عن هذا القصر وما فيه ، وما في القصر وحده ليس بالقليل !

وجدتني في دنيا جديدة من المشاغل وأنا الآمرة المطاعة على رأس عدد كبير من مديري الأعمال والمشاورين وموظفي المكاتب في البرازيل واللكسمبورغ يستبقون رغباتي ويسعون لمرضاتي . وأخذ بي الغرور : الفتاة الغاووشة اليتيمة الفقيرة صارت إلى هذا الحول والطول !

* * * * *

دامت هذه الحال حوالي خمس سنين حتى أفقت يوماً على نفسي . وليس أقسى من اليقظة على الواقع بعد غفوة لذيذة في سحب الأحلام والأوهام . أفقت على نفسي وتساءلت : ماذا صنعت بحياتي ؟

أخذت أستعرض مراحل العمر : معلمة متواضعة . بارونة في زواج شكلي مسرحي . أرملة ثرية وحيدة . خير سني حياتي ذهبت أدراج الرياح ، عبثاً ، فما الذي أفدته من كل هذا كامرأة لها حقها في الزوج الحبيب وفي الأسرة والبنين ؟

أفقت على نفسي وقد تجاوزت الأربعين فأجد أن العناية الألهية وهبتني كل ما تحلم به بنت حواء إلا ما هو الأعظم شأناً : رفيق الحياة . رفيق الحياة الحق تسكن إليه وتهواه ويسكن إليها ويهواها . فلا يستقيم الأمر لإمرأة دون الرجل . فقد تصبح المرأة نجماً عالمياً أو على رأس الحكم أو تنال جائزة نوبل ... ما شاءت ... ولكنها تشعر في قرارة نفسها وفي نظرات الناس أنه لا يكتمل شأنها حتى يقف الرجل إلى جنبها . سنة الله .

تقدم كثيرون بعرض الزواج وبعضهم من خيرة الناس ولكنني أدركت في غريزة المرأة أن الدافع الأول هو السعي وراء مالي ، ثم إنه لم يستجب قلبي لواحد منهم والزواج دون قدر أدنى من الحب ضرب من العبودية خير منه العيش فرداً حراً .

* * * * *

وفي ردة فعل عنيفة ونقمة على ما أنا فيه تخليت عن كل الأعمال والمشاغل التي كنت في بحرانها وتركتها للمدراء والمساعدين والمشاورين وهم أدرى بها ، وأخذت أتردد بين هذا القصر في الريف وبين الدارة على شاطىء كوباكابانا في ريو دو جانيرو .

في هذا الريف أتشاغل كهواية بالإشراف على مزرعة فاكهة « المانغو » فليس حديثي عنها في حفل ريو كله اختراعاً . أما في كوباكابانا فأقضي الساعات في الشرفة المطلة على ذلك الشاطىء الفريد العجيب :

شاطىء كوباكابانا في امتداد قوسه وأشجار نخيله ، وفي انبطاح رماله الناعمة ، وفي الهضاب الخضراء من ورائه ، هو من آيات الله في خلقه روعة وجمالاً ولكن أمواجه غدارة كل الغدر ولها ضحاياها من المستحمين فيه كل يوم بينما عشرات الألوف من الناس تمرح في الحي لا ينقطع صخب الحياة فيه على الشاطىء في النهار وفي الحانات والنوادي في الليل .

في وسط كوباكابانا هذه أقبع وحيدة أترقب رفيق الحياة .

* * * * *

الحق أنني لست وحيدة في دارتي فهنالك رجلان يصاحبانني في الخاطر : واحد من عامة الناس الأحياء ، والآخر في عالم الخلود :

إلى الشرق من شاطىء كوباكابانا أشهد من نافذتي منارة تقوم على صخرة كبيرة في عرض البحر تنعكس أنوارها الخضراء على الأمواج الغدارة من حولها ويسهر في أعلى برجها حارس طوال الليل أتخيله ولا أراه . هو لوحده وأنا لوحدي ولكنه يعود مع مطلع الفجر إلى زوجه وأولاده أما أنا فأظل لوحدي .

وإلى الغرب من كوباكابانا أشهد من نافذتي تمثال السيد المسيح عليه السلام على الهضبة الجرداء « كوركوفادو » في ضاحية من ريود وجانيرو . أراد البرازيليون أن يكون هذا التمثال أعظم معالم المدن في القارة فجاء عملاقاً يتجاوز ارتفاعه ستين متراً وزنته مائتي طن من حجر الغرانيت يطل على العاصمة في هالة من النور ويبسط ذارعيه من العلياء يباركها . أرنو إليه وأدعوه أن ييسر لي رفيق الحياة .

بين حارس المنارة الساهر في عرض البحر وبين السيد حامل آلام الورى على الهضبة أقضي لياليّ في دارتي لا أقنط من رحمة الله .

* * * * *

كان هذا شأني حتى قصدت إلى المرفأ يوماً لاستقبال غابرييلا وزوجها العائدين من رحلتهما السنوية كما ذكرت في مطلع حديثي فكان أن رأيتك تودعهما وكان أن سعيت إلى حفل الكارنفال لدى غابرييلا للتعرف إليك وكان أن دبرنا هذه الزيارة لأفضي إليك بكل شيء .

إنها مشيئة الأقدار فقد قدمت من شمال أفريقيا وقدم ماريو وزوجه من جنوبها لتلتقوا على ظهر الباخرة الإيطالية في عرض البحر ولينتهي المطاف في هذه الولاية ، « ميناس » من قلب البرازيل . مشيئة الأقدار .

أما وقد عرفت عني مراحل الحياة فأود أن أروي لك أخيراً أمراً طريفاً كان له وقعه في نفسي : منذ لقائنا الأول عمدت إلى بعض الكتب والمراجع لأعرف بعض الشيء عن

بلدك فلفت نظري في مصور جغرافي أن المغرب يقع بالنسبة إلى شاطىء كوباكابانا في اتجاه المنارة ذات الأنوار الخضراء التي طالما تطلعت إليها .... واللون الأخضر رمز الأمل !

* * * * *

بهذا ختمت السيدة غلاديس حديثها كما رواه لي صديق العمر طاهر بن سيدي حنون ، وأضاف :

ـ وجدتني في حيرة من أمري : قصدت إلى « مزرعة متواضعة » كما قيل لي ، بدعوة من امرأة تكسب عيشها من وراء زراعة « المانغو » وإذا بي أرشح « رفيق الحياة » للبارونة الثرية الكبيرة في القصر المنيف !

عدت إلى ريو دو جانيرو أستعيد ما سمعت وشهدت في بللو اورزنتي وأتدبر ما جد لي : الحق أن السيدة غلاديس ممتازة في كل شيء رضية الخلق جذابة المحيا أما أن تكون رفيقة حياتي فأمر آخر ، وتوالت صلاتنا بين بين لا أقدم على توثيقها فما أريد أن أغرر بها ، ولا أحجم فما رغبت في القطيعة .

بقيت فترة في هذه الحال أقدم رجلاً وأؤخر أخرى . ذلك أن اختيار رفيقة الحياة قضية ذات خطورة يبدو أنني بالغت في شأنها حتى استعصى عليّ حلها وكأنها ، كما عهدت بدراسة الرياضيات ، معادلة جبرية ذات مجاهيل كثيرة ! وحين أسمع أن أحدهم تزوج مرتين أو ثلاث أعجب لأمره وأعتبره من الأبطال ... أو ممن استوى لديهم الماء والخشب !

* * * * *

زاد في صعوبة حل « المعادلة » هذه المرة عوامل جديدة فالسيدة غلاديس تكبرني بحوالي عشر سنين أولاً وهي أرملة ثانياً وهي بالغة الثراء ثالثاً . وليس في كل هذا من ذنب ولكنني تساءلت ماذا سيقول الناس عني : سعى إلى الأرملة الطاعنة في السن طمعاً في أموالها . وألسنة الناس في مجتمعنا لا ترحم .

يحسب المرء أنه حر طليق ، أو كما يقال متحرر تقدمي ، فإذا جاءت اللحظة الحاسمة لقرار ذي شأن في مجرى حياته دبت إليه المخاوف والعقد تطلع من مكامنها في العقل الباطن لتلزمه بقيود بالية وأطواق ظن أنه شب عنها .

وهكذا ظللت متردداً أخشى الناس وكأنني أعيش لمرضاة الناس . أو ليس لي قدوة

بخير خلق الله وزوجه السيدة خديجة الكبرى ؟

* * * * *

تخططون وتضحك الأقدار : جاء الخلاص من حيرتي هذه من حيث لم أحتسب إذ كان عليّ أن أغادر البرازيل وقد دعيت إلى مهمة جديدة في بلاد الشمال . خلاص لم أرده ولكنه لم يسوءني . وهو خلاص إلى حينٍ فقد تواعدنا على التراسل ثم إن السيدة غلاديس تنوي القيام برحلة إلى أوروبا لتتعرف للمرة الأولى إلى معالمها ولتقيم فترة في دارتها في « سان موريتز » وستزورني في السويد وأزورها في سويسرا . ويخلق ما لا تعلمون .

* * * * *

صعدت إلى ظهر الباخرة « يوليوس قيصر » المرابطة في مرفأ ريو دو جانيرو ، كالحوت الأبيض الأسطوري ، تبعث الدخان من منخريها الأسطوانيين في عنف وتحن إلى العودة إلى مقرها في نابولي . وكما يقول المثل الإيطالي : من عرف نابولي عاد إليها .

وهذه الباخرة هي أخت توأم للباخرة « كريستوف كولومبوس » التي قدمت عليها فخامة وزخرفاً . تشابهت الباخرتان ولكن بين مقدمي على هذه وعودتي على تلك تباينت المشاغل والأيام !

وفترة إقلاع الباخرة عابرة المحيط لها وقعها في النفس وسط حلبة من دوي المكائن وقرقعة سلاسل المراسي وصيحات البحارة وجمهور المودعين أجدني موزع القلب بين عالم جديد أحببته وسكنت إليه وبين عالمي القديم أحن إليه .

* * * * *

كان بين المودعين السيدة غلاديس . تعطلت لغة الكلام وتحاورت عينانا . وفي قرارة كل منا هذا التساؤل : ترى ماذا كتبت لنا الأقدار ؟ سبحانه علام الغيوب .

وقفنا على ظهر الباخرة نتأمل فيما حولنا من الإطار الطبيعي المحيط بريود وجانيرو من جهة البحر ، أوجون « باراناغوا » كما يدعونه . أجمل بقعة من ملكوت الله على وجه الأرض . وعادت إلى خاطري قولة ذلك الراهب الذي رافق مكتشف البرازيل كابريرا منذ خمسة قرون من الزمان حين رأى هذا الجون فركع وقال : إلهي ! إذا كان من جنة على وجه الأرض فهذه جنتك !

* * * * *

دقت ساعة الإقلاع وطاف أحد السعاة يدعو المودعين لمغادرة الباخرة . وفي اللحظة الأخيرة دست السيدة غلاديس صرة في جيبي ثم انطلقت لتهبط على سلم الباخرة .

أويت إلى حجرتي وفضضت الصرة فإذا بها صندوقة صغيرة مغشاة بالمخمل الأزرق ومبطنة بالحرير الأبيض فيها مفتاح ذهبي مرصع بحجر الماس مرفقاً برقعة جاء فيها :

« هذا مفتاح دارتي وقد تعود يوماً » .

* * * * *

عند هذا وقف حديث صديق العمر طاهر بن سيدي حنون وطال إطراقه وهو في تأثر بليغ ، فأردت أن أسري عنه فسألته مداعباً :

ــ وماذا صنعت بهذا المفتاح ؟

تطلع إليّ وقد انفرجت أسارير وجهه وقال :

ــ العجيب أنني منذ أيام طفولتي أبحث عن مفتاح : كان لنا في حينا القديم في مدينة مراكش جيران يدعون آل المراقبي ، وكان أحد أبنائهم عثمان رفيق دراستي الإبتدائية ، وكنت أرى في صدر بهو دارهم صندوقة زجاجية فيها مفتاح حديدي كبير علاه الصدأ يذكرون أن أجدادهم حملوه معهم من الأندلس حين غادروا غرناطة لحوالي خمسمائة سنة خلت . وكان عثمان يتباهى بهذا المفتاح ويعتز ويتعالى فكنت أسأل أهلي مراراً وتكراراً ألا يكون لنا ، نحن بني سيدي حنون ، مثل هذا المفتاح ؟ فلا أحرى جواباً .

وكان لي عم نزق المزاج يبدو أنه ضجر من متابعة سؤالي فقال لي يوماً منتهراً :

ــ خلصنا يا طاهر من سيرة المفتاح ، نحن أكرم من آل المراقبي فقد ترك أجدادنا المفتاح على الباب !



